

محمد حسين حكيك

البريد الاستغاثي

دار الشروق

البيروت
السوق

الطبعة الأولى

يناير ١٩٩٠

الطبعة الثانية

يناير ١٩٩٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دارالشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٣٤٥٧٨ - ٣٩٤٨١٤

بريكا : شرق - للكس : 93091 SHOROK UN

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بريكا : دانشرق - للكس : SHOROK 20175 LE

مقدمة

من حق كل قارئ لهذه الصفحات أن يعرف من أول سطر فيها ، أن ما بين يديه الآن هو أقرب إلى أن يكون «ملفًا» منه إلى أن يكون «كتابًا» ، بالمعنى المصطلح عليه والمفهوم . فهو في الأساس مجموعة من التقارير عن زيارة «معينة» إلى الاتحاد السوفيتي ، في لحظة «معينة» من حياته ، في أجواء «معينة» سادت فيه ، وقد وقعت جميعًا أثناء عملية تاريخية هائلة ، تداعت وتدافعت فيها تغييرات بدأت «زلزالاً» داخل حدوده ثم تدفقت «طوفانًا» كاسحًا إلى أوروبا الشرقية - إلى أوروبا الغربية - إلى بقية العالم - يحرف أمامه عقائد سادت ، وأوضاع رسخت ، وخرائط تحددت ، وموازين قوة كان الظن - طوال نصف قرن تقريبًا - أنها في ثقل الجبال ! .

وفي تلك الفترة - نصف القرن الأخير - بدأ أن الضوابط الحاكمة المسككة بالحالة العالمية السائدة ، كانت كما يلي :

أولاً : اتفاق «بالطا» (المنتجع الروسي المطل على البحر الأسود) حيث اجتمع الرئيس الأمريكي «فرانكلين روزفلت» والزعيم السوفيتي «جوزيف ستالين» - ومعها رئيس الوزراء البريطاني «ونستون تشرشل» - واتفقوا وقتها على تقسيم النفوذ في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية . والواقع أن الاتفاق كان بين العملاقين - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وحدهما - أما بريطانيا فقد كانت مجرد شاهد ساخط يرى الكبار ينفردون بمغانم النصر على ألمانيا النازية ولا يجد لنفسه حصة في التقسيم ، بل يرى امبراطوريته العتيقة نفسها تركة مستباحة يتنازعها الأقوياء .

وفي «بالطا» حصل الاتحاد السوفيتي على نفوذ كامل في شرق أوروبا ، وحصلت

الولايات المتحدة على نفوذ كامل في غرب أوروبا . وكانت عملية اقتسام النفوذ غربية من نوعها في التاريخ إلى درجة أن بعض الدول وجدت نفسها موزعة على الطرفين طبقاً لنسب مئوية ، وأشهر مثل لذلك «يوجوسلافيا» حيث وقع الاتفاق على أن يكون النفوذ فيها للاتحاد السوفيتي بنسبة ٧٥٪ وللولايات المتحدة بنسبة ٢٥٪ - أما «اليونان» فقد كان اقتسام النفوذ فيها مناصفة : ٥٠٪ للولايات المتحدة و ٥٠٪ للاتحاد السوفيتي ، وهكذا ... وهكذا .

وبالفعل فإنه في أعقاب الحرب سادت قواعد هذا العقد الغريب ، وإن كانت حركة التحرر الوطني وحركة عدم الانحياز بعدها استطاعت تحدى هذه القواعد على نحو أو آخر في حقبة الخمسينيات والستينيات !.

ثانياً : اتفاق «بوتسدام» (المدينة الألمانية الجميلة) التي التقى فيها قادة الحلفاء المنتصرين على النازية - لكي يقرروا مستقبل ألمانيا المهزومة ، وكان قرارهم هو تقسيمها إلى غرب وشرق . غرب تتولاه الولايات المتحدة الأمريكية ، وشرق يتولاه الاتحاد السوفيتي ، مع عزم الانثنين معاً على عدم السماح بعودة ألمانيا موحدة باعتقاد أن توحيدها يضع في وسط أوروبا - قلب الأمن الأوروبي - عنصراً قادراً في يوم من الأيام على تحدى الموازين المطلوبة لسلام ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان ذلك هو المنطق الذي صاغه الأديب الفرنسي الأشهر «فرانسوا مورياك» بعبارة التي سارت مثلاً فيما بعد ، بقوله : «إنني أحب ألمانيا إلى درجة أنني أريد أن أرى اثنتين منها - وثلاثة إذا كان ذلك ممكناً» ! .

وفي اتفاق «بوتسدام» ، وقد جرى بعد «يالطا» بسنة واحدة ، لم يكن «روزفلت» حاضراً لأن الموت عاجله قبل النصر ، وهكذا حل محله نائبه وخلفه في الرئاسة الأمريكية - «هارى ترومان» . وأما «تشرشل» فقد حضر الجلسة الأولى في «بوتسدام» واختفى لأن نتائج الانتخابات العامة البريطانية وقتها أزاحت عن رئاسة الوزارة البريطانية وحل محله منافسه رئيس حزب العمال «كليمنت آتلي» . أما «ستالين» فقد كان الوحيد الباقي من ثلاثي «يالطا» وهكذا شارك في اقتسام النفوذ في أوروبا وفي تقسيم ألمانيا .

ثالثاً : اتفاقيات الأحلاف التي أقامت «جلف الأطلنطي» - درعاً للغرب ، ثم «حلف وارسو» ردّاً عليه - درعاً للشرق . وبضرورة هذين الاتفاقين فقد عاد حلفاء الأمس وأطراف عمليات «الاققسام» و «التقسيم» إلى خصامها المذهبي الأصلي بين

رأسمالية وشيوعية ، وكانت المواجهة الحازمة لكل واحد منها إزاء الآخر هي حلفه العسكري تقوم دعائمه على قوته ويحيط به تجمع أنصاره أو أصدقائه أو أتباعه ، استعداداً للصدام إذا وصل التناقض بين الخصمين إلى ما لا تستطيع الدبلوماسية أن تفصل فيه أو تحل عقده .

ويظهر وانتشار الأسلحة النووية أدرك الخصمان المتنافسان أن الصراع المسلح بينهما لم يعد نصراً أو هزيمة ، وإنما أصبح دماراً شاملاً متبادلاً ، والكل فيه مهزوم ! . وهكذا بدأ عصر الحرب الباردة . وبمقتضاه فإن المنافسة والخصومة ظلت قائمة ، ولكن التحكم فيها أصبح ضرورياً لأن الحرب المسلحة أصبحت مستحيلة .

أى أن المنافسة تمثلت في الجانب العقائدى بالدرجة الأولى ، أى أنها أصبحت اقتصادية واجتماعية وسياسية . وبالتالي فقد تحولت إلى مباراة حامية يتعين على كل طرف أن يثبت فيها لشعبه أنه «الفكرة الأصلح» - وللآخرين أنه «الفكرة النموذج» .

وبالطبع فقد كان السند الحقيقي والنهائى لهذه المباراة الحامية هو مقدرة الردع تحميها من مفاجآت القوة ، واقتضى ذلك تسابقاً إلى الاستعداد العسكري حتى لا يحصل طرف على ميزة أو يحقق اكتشافاً خارقاً يمكنه من فرض شروطه على سير المباراة - وهكذا كان سباق السلاح .

وكان «ستالين» لا يزال يحكم بيد من حديد في الاتحاد السوفيتى حين ظهرت الأحلاف ، وبذلك فقد كان هو الوحيد الباقى من أيام «يالطا» و «بوتسدام» - إلى «وارسو» . وعندما مات «ستالين» سنة ١٩٥٣ - فإن قبضته الحديدية كانت مازالت تمسك بالشرق الأحمر رغم كل محاولات خلفائه وأبرزهم «نيكيتا خروشوف» لفكها والتحرر من ضغطها .

* * *

وكانت الآثار والنتائج المترتبة على الحرب الباردة فى ظل سباق السلاح ، غالية التكاليف ، لكن شأنها شأن كل ما يفعله الإنسان لم يكن شرّاً مطلقاً ، كما أنه بالطبع لم يكن خيراً مطلقاً .

وصحيح أن الحرب الباردة فى ظل سباق السلاح أضاعت على البشر موارد طائلة تكاد

تصل في حسابها المالى إلى ثلاثين تريليون دولار (أى ١٠٠٠ ر ١٠٠٠ ر ١٠٠٠ ر ١٠٠٠ ر ٣٠٠ دولار) - أكثر من ثلثها صرفته الولايات المتحدة (أى ما يوازى مجموع متوسط ناتجها القومى لخمس سنوات كاملة !) ...

وصحيح أن الحرب الباردة في ظل سباق السلاح أزهقت أعصاب العالم في أوقات اشتداد الأزمات ، وبالفعل فقد مرت على العالم ساعات احتبست فيها أنفاسه من الخوف والرعب ...

وصحيح أن الحرب الباردة في ظل سباق السلاح أوصلت بعض بؤر التوتر الدولى إلى حروب محلية أو اقليمية محدودة فضل الطرفان فيها أن يتقاتلا بالوساطة وأن يجربا كفاءة سلاحها تحت ظروف القتال دون أن يتورطا فيه مباشرة ...

صحيح كل هذا وغيره ، ومع ذلك فهو لا ينفى أنه على الجانب الايجابى من الحرب الباردة - تحققت مزايا لا مجال للشك في أهميتها وفضلها . فقد أدى سباق السلاح إلى اختراقات في مجالات التكنولوجيا - الطاقة النووية والفضاء والمواصلات والاتصالات والكيمياء الصناعية وغيرها - ووصلت هذه الاختراقات إلى مجالات الانتاج والخدمات ، وفتحت أمام البشرية آفاقاً كانت تبدو من قبل وكأنها من أوهام كتاب قصص الخيال العلمى .

وعندما وصل البشر إلى هذه الآفاق حدثت تغيرات بلا حدود في نوعية وكيفية حياة الناس كل يوم وفي ايقاع هذه الحياة وفي مذاقها - وفي امكانياتها ومطالبها أيضاً . وبهذه « النقلة » الهائلة في التاريخ الاجتماعى للإنسان بان أن العقائد القديمة أصبحت تحتاج إلى مراجعة تكاد تصل إلى الأساس .

فالرأسمالية - بتركيزها على حافز الربح دون أى اعتبار آخر - تحول المجتمعات إلى غابات وحوش وزواحف ! .

والشيوعية - بتركيزها على مطلب المساواة دون أى اعتبار آخر - تقوم بعملية أشبه ما تكون بتسطيح كل تضاريس الطبيعة البشرية ، وهو ضرب من المستحيلات .

* * *

والواقع أن هذه « النقلة » الكيفية والنوعية في التاريخ الاجتماعى للإنسان أحدثت

فوراً مذهلاً تبدت آثاره في عملية حراك اجتماعي عالمي راحت معدلاته تزيد بشدة يوماً بعد يوم .

وكان هذا الحراك الاجتماعي العالمي في جانب من جوانبه يصنع عملية تاريخية فادحة الأثر ، وفي الواقع فإنه كان يعيد تشكيل التركيب الطبقي (والفكري ومن ثم العقائدي) - على مستوى العالم .

وكانت أبرز الملامح فيما بدا من التشكيل الطبقي الجديد للعالم أن الطبقة الوسطى يتسع نطاقها بشكل مهول .

وهكذا تغير المحتوى العقائدي لمباراة الحرب الباردة في ظل سباق السلاح .

وكانت الحقيقة التي تجلت بعد ذلك هي أنه لا طبقة «الرأسمالية» (التي اعتبرت نفسها متفردة بحق الثروة) ، ولا طبقة «البروليتاريا» (التي اعتبرت نفسها وريثة وحيدة للحقيقة الاجتماعية) - هي الفاعل الرئيسي في المجتمعات ، وإنما أصبح الفاعل الرئيسي الجديد هو : الطبقة الوسطى التي اتسعت وتمددت بسرعة وتحولت إلى ساحة هائلة تدفقت فيها آمال وطموحات وتطلعات تتمتع بجوية فائقة وخيال مقتدر وقوة فعل لم تتوافر على الإطلاق لأي «تشكيل اجتماعي» سبق ! .

أصبحت الطبقة الوسطى هي مستودع الحراك الاجتماعي الجديد ، ولعلها كانت كذلك طول التاريخ . فإن القلة التي تصعد إلى أعلى السلم الاجتماعي تنفذ منها ، كما أن الكثرة المتراخمة عند أول درجاته تطلب الوصول إليها .

وعندما فقدت «الرأسمالية» أساس دعواها بالحق «الطبيعي» في السيطرة والتحكم - وعندما فقدت «البروليتاريا» مبرر دعواها بالحق «الاجتماعي» في احتكار السلطة - فإن الطرق تفتحت واسعة وعريضة في العلاقة بين الاقتصاد والسياسة - ربما لأول مرة في التاريخ .

فلم يعد ممكناً لأحد أن يتحدث عن حرية اقتصادية بدون حرية سياسية - وإلا كانت النتيجة ثورة .

ولم يعد ممكناً لأحد أن يتحدث عن حرية سياسية بدون حرية اقتصادية - وإلا كانت النتيجة ثورة .

وإنما تلازمت كل الحريات وامتزجت في مطلب واحد اقتصادى وسياسى في نفس الوقت تسعى إليه وتطالب به أوسع الكتل الاجتماعية في كل وطن من الأوطان . كتلة أوسع من «الرأسمالية» وأوسع من «البروليتاريا» .

ولم يكن في إمكان قوة على الأرض أن تصد وتمنع ، مهما كان لون القناع الذى تضعه على وجهها أحمر أو أزرق . أسمر أو أسود ! .

وفي المحصلة النهائية تفجر وتدافع «الطوفان» الذى جرف الضوابط الثلاثة الحاكمة في العالم من اتفاق «بالطا» إلى اتفاق «بوتسدام» إلى اتفاق حلف الاطلنطي وحلف وارسو... .

* * *

ولقد كان بين ما قصدت إليه في هذه المقدمة أن أشرح نقطة أساسية لا يصح أن تضيع في زحام الاجتهادات والتحليلات ، وهى أن المشاهد «الخرافية» التى تراها الدنيا الآن - لم تهبط من السماء فجأة ، ولم تجئ لأن القمة في الكرملين بعد «ستالين» وخلفائه وصل إليها رجل واحد اسمه : «ميخائيل جورباتشوف» . فالتحولات الكبرى في التاريخ لا تحدث بأسلوب الانقضاض من الهواء على غير انتظار ، وإنما تحدث هذه التحولات بقوانين التطور ذاتها . تغييرات كمية . تتراكم بعضها مع بعض . ويحدث تراكمها تفاعلات تؤدي في لحظة من اللحظات إلى تغير كيمي يبدو فورياً وليس هو كذلك في حقيقته .

كمثل ميلاد الحياة في جنين الأم . كمثل البذرة في باطن الأرض .

في البداية تبدو ساكنة كالجماد . ثم تطرأ تغييرات تتراكم مع بعضها كماً . وعند لحظة معينة من التراكم تدب الحياة ويحدث التحول الكمي (بارادة الخالق) - ثم يختلف ما «جد» تماماً عن طبيعة ما «كان» - وهكذا .

ومعنى ذلك أن الزلزال السوفيتي لم يحدث فجأة ، ولا كان الطوفان الذى أعقبه بدون مقدمات ، ثم أن ما هو قادم بعد الزلزال والطوفان كلاهما لا يمكن أن يحكمه اجتماع في مياه مالطا التى هاجت فجأة بعد هدوءه - بين «جورج بوش» و «ميخائيل جورباتشوف» . ولا اجتماع آخر بينها في الربيع عندما يقوم «جورباتشوف» بزيارة الولايات المتحدة .

وإنما هناك متغيرات أبعد من ذلك كله وأوسع وأعمق ! .

* * *

إن هذه المتغيرات الفادحة لا تعنى « نهاية التاريخ » كما تصور أحد كبار المفكرين الأمريكيين وهو « فرانك فوكوياما » (من أصل ياباني) ، حين كتب رسالة شهيرة احتدمت حولها مناقشات عالية الصوت والصدى في ربيع ١٩٨٩ ، وكان عنوانها بالضبط « نهاية التاريخ ؟ » ، وكان تصوره أن التحولات الجارية الآن تعنى حل التناقضات التي شغلت فكر البشرية طويلاً . وكان يتحدث عن « تناقضات الفكر » التي تصور « هيجل » أنها انتهت بانتصار « نابليون » في معركة « ايننا » لأن هذا الانتصار كان في جوهره انتصاراً لـ « فكرة » الثورة الفرنسية على الكنيسة والاقطاع - وكان ذلك خطأ وقع فيه الفيلسوف الجدل العظیم .

وقد استعاد الاستاذ الأمريكي اللاحق تصور الفيلسوف الألماني السابق وسجبه على أزمة الشيوعية واعتبرها مرة أخرى « نهاية التاريخ » بانقضاء التناقض في « الفكر » بين الرأسمالية والشيوعية ، وأظنه بدوره أخطأ ، فالتناقضات في حياة البشر هي حياتهم ذاتها ، وكل اشكالية يتم حلها تفسح الطريق لاشكالية جديدة .

وتقديري أن أحوال العالم بعد الزلزال السوفيتي والطوفان الذي راح يهدر بعده سوف تجيء معها بمشاكل طارئة قد تكون هي بالذات عناصر تناقضات العالم في القرن الواحد والعشرين ، ومن بين هذه المشاكل مثلاً مايلي :

١ - إن كل إنسان وكل شعب وكل أمة تحتاج ضمن مقومات هويتها أن تعرف وتحدد « الآخر » الذي تتميز هويتها بالتعارض معه .

فالغرب الرأسمالي - سواء في حلف الأطلنطي أو خارجه - كان يعرف نفسه إزاء « الآخر » ، وهو حلف وارسو وبقية العالم الشيوعي .

والآن لم تعد هذه المعرفة بـ « الذات » وبـ « الآخر » كافية .

٢ - إن خطوط التقسيم العنقودي والعسكري في مرحلة سبقت أحداث وراها تراكمات من تعبئة اقتصادية واجتماعية وإعلامية قامت بالتحريك والتنشيط ، والآن تنهار الخطوط ولا تجد التراكمات القديمة حائطاً (مثل حائط برلين) تستند عليه . ولا بد أن تنشأ خطوط أخرى ، وليس بالضرورة حدود ! .

٣ - وكانت هناك سلطة كبيرة في الغرب والشرق معاً لما أسماه الرئيس « ايزنهاور » يوماً بالمؤسسة العسكرية - الصناعية ، وهي مؤسسة تقوم بالدرجة الأولى على السلاح ، وهذه المؤسسة الضخمة مهددة الآن في عقردارها ، وليس هينا أن « بوش » قبل ذهابه إلى لقاء « جورباتشوف » أرسل إلى الكونجرس الأمريكي مشروعاً بتخفيض ميزانية السلاح بمبلغ ١٨٠ بليون دولار على مدى السنوات الثلاث القادمة . ومعنى ذلك أن هناك تناقضات مصالح داخلية - تحل محل تناقضات مصالح خارجية ! .

٤ - إن سقوط خطوط التقسيم سوف يؤدي إلى بعثرة في الصفوف قد تختلف معها المواقع وتختلف التوجهات دون ضابط للإيقاع ، وهو دور كانت واشنطن تقوم به غرباً وموسكو تقوم به شرقاً .

وإذا غاب دور « ضابط الإيقاع » فن الذي يضمن ألا تغطي آلات الطبل والنفخ والنحاس على الناي والوتر والبيانو مثلاً ، حتى وإن بقى عازفو الأوركسترا على كل ناحية بالقرب من بعضهم البعض !؟

ومعنى ذلك أن الدنيا على وشك أن تسمع أنغاماً متعارضة ومتقاطعة !

٥ - وفي مرحلة سابقة كانت الشعارات قادرة وحدها على أن تكون سياسات ، بمعنى أنه كان في مقدور رئيس أمريكي مثل « رونالد ريغان » أن يتحدث عن « امبراطورية الشر » فيفهم عنه الناس في أمريكا وأوروبا ويسرون وراء سياساته . كما أن رئيساً سوفيتياً مثل « بريجنيف » كان في مقدوره أن يصل إلى نفس النتيجة عندما يتحدث عن الاحتكارات الامبريالية وسيطرتها ! .
والآن تحتاج السياسة إلى لغة جديدة في الخطاب .

٦ - ويزرتب على ذلك أن عصر التأثير بالانطباعات يوشك أن ينتهي ويحل معه عصر يصعب أن يتحقق فيه الاقتناع بمجرد الانطباع ، ومعنى ذلك أن شعوب العالم سوف تطلب نتائج مؤكدة أمام عيونها وليس مجرد شحنتات نفسية .

فعندما يكون الصراع العقائدي دولياً يكون التركيز أكثر على السياسة الخارجية ، وفي مجالها يفترض الناس أن قادتهم يعرفون أكثر منهم ... وأما سياسة النتائج المحددة فهي عمل مجاله الداخل بالدرجة الأولى ، وفيه فإن الناس يصلون إلى

معرفة الحقائق عن طريق حياتهم كل يوم وما يزيد أو ينقص فيها .

٧ - إن ما يجري الآن في الاتحاد السوفيتي وفي أوروبا الشرقية هو قصة مازالت في بدايتها ، وفي الغالب فإن بداية أى قصة تختلف عن نهاياتها ، والتاريخ دائما يعلم قارئيه أن الذين يقودون التحولات الكبرى يقعون غالبا بين المطرقة والسندان . فالأوضاع السابقة على ظهورهم تملك قوة الأمر الواقع وما ترسب فيه من تجارب ، والآمال التي تحركهم تنقلهم إلى أجواء غريبة عليهم ثم أنها تدفعهم بأسرع مما يقدرون على ملاحظته - وإذا حدث ذلك ، وهو محتمل ابتداء من « ليخ فاوتسا » في بولندا إلى « ميخائيل جورباتشوف » نفسه في موسكو - فمن بعدهم ؟ وكيف ؟ وإلى أين ؟ .

٨ - وفي وسط هذه الظواهر من الارتباك والخلخلة فمن الذي يتقدم لاستغلال الفرص السانحة : كيف تتحرك ألمانيا مثلا ؟ - كيف تتحرك اليابان ؟ - كيف وراء كل هؤلاء أو قبلهم تتحرك الولايات المتحدة ؟ .

بل كيف يتحرك من هم أصغر من هؤلاء جميعا ؟ - وبلغت النظر مثلا أن « جورباتشوف » وهو في إيطاليا قبل أن يتوجه إلى قمة مالطا ببارك توقيع عقد مع شركة « فيات » تستثمر بمقتضاه في روسيا ٩٠٠ مليون دولار . وتبدو السوق السوفيتية الجائعة إلى التكنولوجيا أرض ميعاد جديدة للباحثين في الغرب عن فرص للاستثمار .

وإذن فكيف يحدث السباق نحو الشرق ؟ ومن يصل فيه أولا ؟ ومن يستفيد أخيرا ؟ .

٩ - وعلى غير مستوى القوى الدولية ، فكيف يتحرك ما هو أقوى من هذه الكتل وأكثر عراقا وأبعد جذورا في الأرض . ما الذي تفعله المسيحية الأرثوذكسية في روسيا مثلا ؟ والمسيحية الكاثوليكية ؟ ثم - وهي قضية مثارة فعلا - ما الذي يفعله الإسلام في الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتي ؟

ولقد كانت زيارة « جورباتشوف » للفاتيكان والتقاؤه هناك بالبابا « جون بول » الثاني اعتذارا سوفيتيا كاملا عن عبارة « ستالين » الشهيرة التي قال فيها : « البابا ... البابا ؟ ماهي قوته ؟ وكم فرقة عسكرية لديه ؟ !

وهذه مجرد افتتاحية . وكل افتتاحية لها بما بعدها .

١٠- وهذه قضية مباشرة وهي تتصل بالاتحاد السوفيتي نفسه وبـ « ميخائيل جورباتشوف » شخصا .

لقد أدرك عددا من الحقائق ، وكان لديه الوعي للنزول على أحكامها :

- أدرك مثلا أن الاتحاد السوفيتي لا يستطيع مواصلة سباق السلاح ، والأولى به الآن أن ينقل اعتماداته لكي يضحها دما جديدا في عملية الإنتاج والخدمات - لكن هذا النقل ليس سهلا على فرض أنه تم بدون مقاومة من آخرين . ويقدر الخبراء أن الموارد المنقولة من السلاح إلى الإنتاج والخدمات يستحيل أن يظهر أثرها قبل فترة تتراوح بين خمس سنوات وعشرة . وهذه فترة في الزمن السياسي طويلة خصوصا إذا كان صبر الناس نفذ أو في طريقه للنفاذ .
- ولقد أدرك مثلا أنه لم يعد في مقدور السلاح السوفيتي - كما فعل في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ - أن يمنع الاصلاحات السياسية الضرورية ، وأولها التعددية بما تعنيه من ضرورة انتهاء احتكار السلطة للحزب الشيوعي وحده .

والتحدى الذي يواجهه هو : هل يستطيع أن يسمح بهذه التعددية لبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية ، ثم يرفض السماح بها في الاتحاد السوفيتي نفسه ؟ . وإلى أى مدى يستطيع أن يرفض ؟ وإذا لم يرفض فإلى أى مدى يستطيع أن يصمد هو أو حزبه على القمة في الكرملين ؟ وإذا صمد فما هو الثمن ؟ وإذا لم يصمد فما هو البديل ؟

* * *

وقد وصلنا الآن إلى منحى على الطريق ظاهر ، فكل ما قلته حتى الآن يجرى في « الشمال » - أمريكا الشمالية ، وأوروبا غربا وشرقا ، واليابان . وهناك في العالم تحت الشمال « جنوب » . و« الشمال » في مرحلة من التطور متقدمة ، و« الجنوب » مازال بعيدا .

وفي المرحلة السابقة كانت تناقضات العالم مزدوجة : غرب وشرق ، أى رأسمالية وشيوعية . ثم شمال وجنوب ، أى غنى وفقير .

وفي حين أن المتغيرات العالمية تندفق كلها في الشمال ، فإن الجنوب حتى هذه اللحظة

لا يملك إلا أن يراقب مبهورا أحيانا . خائفا في أحيان أخرى . وفي معظم الأحيان لا يظهر عليه أنه واصل فيما يراه إلى استنتاجات صحيحة أو قريبة من الصحة .

وهنا أصل إلى نقطة أخرى لا بد أن تشغلنا ، وأعنى بها رؤانا نحن في العالم الثالث عموما ، ونحن هنا في العالم العربي على وجه الخصوص - إلى ما جرى ويجرى ويواصل جريانه إلى القرن الواحد والعشرين . وهناك مجموعة ملاحظات أولية أجازف بعرضها على النحو التالي :

١ - سوف تكون مشكلة إذا لم يفهم العالم الثالث حقيقة موقعه على طريق التطور فإذا هو يجرى في مواكب الزحام على غير هدى .

والحقيقة أن العالم الثالث بدأ بالكاد خطواته الأولى على الرحلة الطويلة لعملية التنمية . وأول احتياجات التنمية ضرورة توافر التراكم الأساسى لرأس المال . وهذه الضرورة لا يمكن أن تصنعها أداة غير التخطيط العلمى الواعى للموارد ، بما في ذلك دور كبير تقوم به الدولة (وذلك مها كانت الدعاوى أساس معجزة اليابان وألمانيا الغربية وغيرهما) .

ولقد حدث تراكم رأس المال في الشمال نتيجة لعهود قاسية وظلمة من الاقطاع والاستغلال ، ثم لحقتها عصور طويلة ومظلمة جرى فيها نزع ثروات المستعمرات . وبصرف النظر عن الخطأ والصواب فإن عملية التراكم تحققت وبسندها تحققت أسباب التنمية ، ولم يعد ذلك متاحا في العصر الحديث للدول ، ولا هو مما يدخل في طاقة الأفراد وحدهم .

وليس من حق طبقة في المجتمع ، ولا فئة ، أن تزعم لنفسها دورا أو حقا يخرج عن مراحل التطور في أوطانها ، وإلا كانت تغامر بالمستقبل العريض تحت وهم « مجازاة العصر » أو طمعا في « غنائم فرص » تظنها سانحة !

٢ - سوف يكون خطأ أن يتصور اليسار في العالم العربي أن الزلزال في الاتحاد السوفيتى والطفوفان بعده - كلاهما ظواهر عابرة لا تلبث أن تنقضى وينساها التاريخ الذى شهد مثيلات لها من قبل - فهذا الذى يجرى بلا سابقة لأنه أحكام عصر جديد كذلك العصر الذى اكتشف الإنسان فيه الزراعة لأول مرة ، ومن ثم اختلفت معالم حياته على الأرض .

كذلك سوف يكون خطأ أن يدعى أحد أن ما هو ظاهر في الاتحاد السوفيتي وفي أوروبا الشرقية تجاوز في التطبيق ليس له أن يمس الفكرة . وليس ذلك صحيحا لسبب رئيسي وهو أن عملية الإنتاج بما فيها عناصر قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وفائض القيمة - لم تعد تخضع لتصورات القرن التاسع عشر ، وبالقطع فإن الصراعات الاجتماعية باقية ولكنها بالتأكيد سوف تعثر لنفسها على تحليلات متطورة .

٣ - سوف تكون مأساة لو أن اليمين التقليدي في العالم العربي تصور أن ما يجري الآن في العالم انتصار صريح أو ضمنى له ، فليست تلك حقيقة . فاليمين العربي - أو ما يسمى بذلك - ليس يمينا حقيقيا بالمعيار الرأسمالي ، وإنما هو - في معظمه - يمين متطفل على مصادفات ظروف ، وهو لم ينجح حتى في تحويل هذه المصادفات إلى رأسمالية إنتاج .

ولقد تعززت صفوف اليمين التقليدي بعناصر مستجدة في السبعينيات والثمانينيات راحت تغالى في سلوكها ومطالبها إلى درجة الابتزاز دون أن تدرك أن الحقائق الأبرز والأكثر وضوحا في التطورات الجارية تكشف - بين ما تكشف - أن المستقبل كله لإدارة علمية - ومسئولة اجتماعيا - سوف تكون هي ، قبل غيرها من العناصر ، سند الملكية وأساس شرعيتها . كما أنه ليس هناك قانون ولا سلطة تقدر على حماية تفاوتات هائلة في الدخول تستغنى عن شريعة العدل وشرعيته ، وربما كان التآكل - إلى درجة الحرب الأهلية - في أمريكا الوسطى واللاتينية درسا يستحق الفحص والتدقيق .

ومع ذلك فلعل اليمين العربي - قديمه وجديده - يتذكر أن اليمين الأكثر عراقة والأصلب عودا يواجه أزمة في البلدان المتقدمة تصل إلى معاقلة الكبرى . ويكفي أن نتابع الحوار الدائر في بلد مثل بريطانيا - حيث كتب « آدم سميث » كتابه الشهير « ثروات الأمم » وهو انجيل الرأسمالية - لكي يسمع صوت الحوار الخطير الدائر بين غلواء السيدة « مرجريت ثاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا وبين تعقل القصر الملكي مدعما بسلطة الكنيسة ذاتها . ففي حين أن صوت « مرجريت ثاتشر » يسمع صانخبا بآراء مبالغ في التبسيط عن « الحرية الاقتصادية » بغير قيود - فإن الملكة وكبير

أساقفة «كانتربرى» يقفان أمامها بحزم في المطالبة بالحفاظ على مصالح الفقراء وحقوقهم مخافة أن تجد بريطانيا نفسها منقسمة إلى مجتمعين بدلا من مجتمع واحد في عصر لم يعد يرضى بذلك أو يسمح به .

ولعل الفجوة بين الطرفين هي في «مدى الرؤية» بالنسبة لكل منهما . ففي حين أن «مرجريت ناتشر» تتصرف في حدود ولاية خمس سنوات هي مدة أى مجلس للعموم - وبالتالي أغلبية تمكنها من رئاسة الوزارة (وهي مدة محدودة حتى إن تكررت) - فإن ملكة بريطانيا وكبير أساقفة «كانتربرى» يتصرفان بنظرة أوسع للمستقبل ، فكلاهما - الملكية والكنيسة - يعتبر نفسه مؤسسة دائمة في الحاضر وفي المستقبل - وهذا ما يعطى لرؤيتهما وزنها الحقيقي وقيمتها الأصيلة .

وربما أضفت أن في بريطانيا الآن قضية لها دلالة تتصل بهذه المعاني . فهناك الآن قضية بين آلاف من طلبة الجامعات وعشرات من البنوك . فهؤلاء الطلبة كانوا قد اقترضوا من البنوك ما مجموعه «بليون» جنيه استرليني يغطون بها نفقات تعليمهم العالى في الجامعات ، ثم يعيدون تسديدها بعد ذلك حين يبدأون حياتهم العملية . والآن - ومع الرياح التي تهب من وارسو وبودابست وبرلين الشرقية - يرفض الطلبة الإنجليز الذين تخرجوا أن يدفعوا ما استحق عليهم ، بمنطق أن التعليم حق لا بد للمجتمع أن يكفله لهم ! .

وهي قضية تستحق الوقوف أمامها ...

٤ - إن صور ما يجري في الاتحاد السوفيتي وفي أوروبا الشرقية منشورة في صحفنا كل يوم . والصورة عادة للمشاهدة . نتفرج عليها بينما نقرأ ما هو مكتوب . وفي هذه الحالة المستجدة يجب أن نعمل العكس . أى أننا يجب أن نقرأ الصور - ثم لنا بعدها إذا أردنا أن نتفرج على ما هو مكتوب .

إن الصور تستحق - لأول مرة - أن تقرأ ، وإذا جاز لأى منا أن يظن أن الصور - صور ، فإن المسألة هذه المرة لها عمق آخر .

الصور هناك داعية إلى التفكير وداعية إلى التأمل ، وهذا العالم لم يعد يعرف حدودا . وقد نستطيع التحوط ضد انتقال الأمراض - مثل «الايذز» مثلا - لكن البشرية لم تعرف من قبل تحوطا ضد الأفكار .

كان المرض في الماضي هو الذى يسبب العدوى وحده . والآن فإن الصحة لأول مرة في التاريخ قد تكون معدية !

٥ - إن ما يجرى في أوروبا الشرقية شاهد آخر على عجز السلطة . والحاصل أن الشوارع الآن وليست القصور هي التي تقرر المصائر في عصر جديد .

ولقد كان اقتناعي أن هناك لحظات في التاريخ تصبح فيها الميادين المفتوحة أقوى من القلاع المحصنة ، وتصبح فيها المظاهرات السلمية سلاحاً أفعال من عتاد الجيوش ، وتصبح فيها الفكرة أعلى دويماً من القنابل حتى وإن كانت ذرية ! .

ولقد كانت الترسانات النووية للحلفين الكبارين ، حلف الأطلنطي وحلف وارسو ، تضم مخزوناً يصل إلى قرابة ربع مليون رأس نووي تملك قوة تدمير تكفي لتزيق الكوكب الأرضي ست مرات وتحويله إلى شظايا عالقة بفضاء الكون ومعها رماد كل الأحياء الذين عاشوا عليه .

وكان هذا كله تحسباً واستعداداً لدعم المباراة الساخنة وراء الحرب الباردة .

ثم جاء صيف وخريف ١٩٨٩

وانتهت الحرب الباردة على حد تعبير «جورباتشوف» نفسه بعد ختام فته العائمة مع الرئيس الأمريكي «جورج بوش» ، وتحوّل مخزون الدمار الشامل إلى مخزن «مخلفات وفضلات» لا بد من التفكير في طريقة لكنسها حتى وإن كانت قيمة هذه «المخلفات والفضلات» قد زادت على ثلاثين تريليون دولار ! .

محمد حسنين هيكل

الزّلال السّوفيتى
مُوسكو

أكتوبَر - نوفمبر ١٩٨٩

خلفيات اللقاء المنتظر
بين « بوش » و « جورباتشوف »

أوروبا الشرقية من مبدأ « برجنيف »
إلى مبدأ « فرانك سيناترا »!؟

« البيروسترويكا » و « الجلاسنوست »
والعلاقة العضوية بين الاثنين

(١)

غادرت موسكو عن طريق مطار « شيرمتيفو ٢ » في نفس الساعة التي كان العالم يستمع فيها إلى الاعلان عن اجتماع على مستوى القمة الدولية بين الرئيس الأمريكى « جورج بوش » والرئيس السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » يتم في أول الشهر القادم - ٢ ، ٣ ديسمبر ١٩٨٩ - فوق مياه البحر الأبيض ، يوماً على ظهر قطعة بحرية أمريكية ، و يوماً على ظهر قطعة بحرية سوفيتية .

وكان « جورج بوش » هو الذى أعلن بنفسه نبأ الاجتماع من قاعة المؤتمرات في البيت الأبيض ، ومن خلفه وقف كبار مستشاريه - وفي نفس الدقيقة كان « ادوارد شفرنادزه » وزير الخارجية السوفيتية هو الذى تولى إعلان النبأ في قاعة المركز الصحفى في موسكو ، وإلى جواره رجل واحد هو « جنادى جراسيموف » المتحدث الرسمى باسم الرئيس السوفيتى .

* * *

وكان إعلان النبأ نصف مفاجأة ، لأن عواصم مؤثرة في التحالف الغربى كانت تلح على الرئيس الأمريكى أن يتقدم بخطوة سريعة تتلاقى مع التدايعيات والتفاعلات الهائلة التى تجرى في الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ، وبدا الرئيس الأمريكى لبعض الوقت متردداً تحت تأثير التيار المحافظ في صنع القرار

الأمريكي ، وهو تيار يشعر الآن بنشوة لا يدارها ، لاعتقاده بأن الرياح تملأ
شراعه وتندفع مع هواه !.

وكانت الاتجاهات السائدة في البيت الأبيض طوال شهور الصيف - وقد
سمعت مجملها في باريس قبل الرحلة إلى موسكو - على النحو التالي :

« لماذا يتعين على واشنطن أن تلاقى التداعيات والتفاعلات الهائلة التي تجرى
في أوروبا الشرقية - قرب منتصف الطريق ؟ ولماذا لا تتعدى هي ولو قليلاً حتى
تأخذ هذه التداعيات مداها وتصل إلى نهايتها المحتممة بسقوط الشيوعية فكرة
وتجربة ونظاما ؟ ولماذا يتحتم على الولايات المتحدة أن تمد الآن يدا إلى خصم
وقف أمامها متحدياً أكثر من ثلاث حقب متوالية في الخمسينيات والستينيات
والسبعينيات من هذا القرن ؟ ولماذا يكون واجباً على « جورج بوش » أن يتقدم
لتخفيف الضغوط الواقعة على « جورباتشوف » من تداعيات وتفاعلات ما يجرى
الآن في الاتحاد السوفيتي وما حوله من دول أوروبا الشرقية ؟.

ثم إن هناك موعداً محددًا بين الاثنين فعلاً في صيف ١٩٩٠ عندما يقوم
الرئيس السوفيتي بزيارته الرسمية المقررة للولايات المتحدة الأمريكية ، وإذا
كانت مخاطر التداعيات والتفاعلات الجارية الآن لا تستطيع الانتظار حتى ذلك
الموعد ، فالمشكلة ليست مشكلة « جورج بوش » وإنما مشكلة « ميخائيل
جورباتشوف » ! .

ثم يتواصل منطق الاتجاهات السائدة وقتها في البيت الأبيض - تحت تأثير
التيار المحافظ - فيخلص إلى أن موقف الانتظار والترقب قد يكون أسلم المواقف
لأنه لا يتضمن أي مخاطرة محسوبة أو غير محسوبة ، خصوصاً وأن حقيقة موقف
« جورباتشوف » مازالت غامضة أو على الأقل ملتبسة - وفي كل الأحوال : من
هو ؟

- هل هو رجل يحاول انقاذ عقيدة يؤمن بها من أزمة تواجهها - وإذا كان
الأمر كذلك فلماذا تساعده الولايات المتحدة ؟

- هل هو رجل يحاول انقاذ نظام يقف على قفته من عاصفة تهب عليه - وإذا كان الأمر كذلك فتلك قضيته ولا شأن لـ «جورج بوش» بها؟
- أو هل هو رجل يحاول أن ينقذ نفسه وسط طوفان يهدده شخصياً - وإذا كان الأمر كذلك فأى جدوى من المحاولة مادامت المسائل قد وصلت إلى هذا الحد - انقاذ رجل مازال موقفه غامضاً أو على الأقل ملتبساً ، فضلاً عن أنه مهما بدا من ذكائه وبراعته لا يمكن إلا أن يكون نتاجاً طبيعياً للنظام الذى عاش وظهر فيه؟! .

كان مجمل هذه الاتجاهات السائدة فى البيت الأبيض يصل إلى باريس وتجري مناقشته فى أروقة «الأليزيه» - قصر الرئاسة - والـ «كاي دورسيه» - وزارة الخارجية . وكان الرئيس «فرانسوا ميتران» - وهو الآن رجل الدولة الأكثر بروزاً فى أوروبا الغربية - قد توصل إلى قناعة مؤداها :

«إن هذه الاتجاهات تبسيط وتسطيح للأمور لا تختمله حقائق العالم المعاصر ، ولا حقائق الوضع الدولى الراهن . فالاتحاد السوفيتى مهما اشتدت أزمته أو أزماته هو إحدى القوتين الأعظم فى هذا الزمان ، ثم إن انقراض أوروبا الشرقية بالتداعيات والتفاعلات غير المنظمة كفىل بأن يحدث خللاً مفاجئاً فى التوازن الأوروبى الذى ساد منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية» .

ومن هنا كان رأى «فرانسوا ميتران» : «إن انتظار التداعيات والتفاعلات الجارية فى الشرق حتى تأخذ مداها - قصور فى الإدراك والتحليل ، وأنه لا بد من حركة غربية سريعة ونشطة تجاه الشرق» .

وربما أن «فرانسوا ميتران» - إلى جانب رؤيته الواضحة لضرورات التاريخ - كان يشعر أيضاً بضرورة فرنسية بحثة لم يكن يفصح عنها صراحة ، وهى تخوفه من أن تتحرك ألمانيا وتسبق الجميع فى اتجاه الشرق ، وهذه ظاهرة متكررة فى التاريخ الأوروبى ، فالحيوية الألمانية المركزة كانت دائماً منجذبة إلى الفرص الهائلة المتاحة فى روسيا الشاسعة ، وكان التعبير الذى يصوغ هذه الظاهرة

هو أن «الزمان الألماني يحلم دائماً بالمكان الروسي» - أي أن كل زمن للقوة في ألمانيا كان يراوده الطموح باستمرار إلى امكانيات روسيا المقدسة من وسط أوروبا إلى شواطئ المحيط الهادى .

وربما أن مخاوف «فرانسوا ميتران» من التقاء «الزمان الألماني مع المكان الروسى» (فضلاً عن الاحتمالات المتسارعة بامكانية توحيد ألمانيا ، وهو طارئ يستطيع قلب معادلات الأمن الأوروبى رأساً على عقب) - كانت ضمن بواعثه فى الالحاح على عدم الانتظار لما تجيء به التدايعيات والتفاعلات فى الشرق . ومن هنا كانت نصيحته فى اطار مشاورات لم تنقطع من الصيف إلى الخريف - تحذيراً ضد سياسة الانتظار ، ودعوة إلى التقدم بخطوة من نوع ما فى اتجاه الشرق .

* * *

وفى لندن - وكما هى العادة ! - كان الرأى وسطاً أى أنه «مع انتظار التدايعيات والتفاعلات الجارية فى الاتحاد السوفيتى ، وضد الانتظار فى نفس الوقت !» .

كان رأى لندن - وقد حرصت على أن أسمعه أيضاً قبل الرحلة إلى موسكو - أنه «قد يكون من المفيد أن تظهر اشارات متعاطفة من نوع ما إزاء «جورباتشوف» ، والمشكلة هى كيف تجيء هذه الإشارات المتعاطفة ، ومن يقوم بها؟ - والراجح أن «مرجريت ناشر» كانت تطمح إلى أن تكون هى بالذات خطوة الغرب فى اتجاه الكرملين . وكان رأياها - وهى تكرره كثيراً بصراحتها المثيرة للفرع أحياناً :

«إنها هى التى اكتشفت «جورباتشوف» وتوقعت له أن يصل إلى القمة فى الاتحاد السوفيتى ، وذلك عندما زار لندن سنة ١٩٨٣ ، وكان يومها مجرد مسئول عن الزراعة فى المكتب السياسى . (وقد تنبأت هى مبكراً أنه - وليس غيره - هو الذى سيخلف «تشرينكو» الزعيم السوفيتى وقتها والذى كان يموت

بعد أن خلف «آندروبوف» الزعيم السوفيتي الذي مات قبله بسنة واحدة (١٩٨٢) ، والذي كان بدوره قد خلف «بريجنيف» الذي ظل يموت عشر سنوات كاملة هي نصف مدة حكمه الذي يعرف الآن بعصر الركود العظيم !! .

وكانت «مرجريت ثاتشر» تواصل قوطها بنفس الصراحة المثيرة للفرع أحياناً «إنها هي التي أقنعت «صديقها العزيز» رونالد ريغان (الرئيس الأمريكي السابق) - بأن يلعب على «جورباتشوف» باعتباره الحصان الأكثر حظاً في الفوز بزعامة الكرملين وصدق رهانه ورهانها قبله . ثم أنها ظلت ترعى العلاقات بين الرئيس الأمريكي العجوز والزعيم السوفيتي الشاب حتى أنها في بعض الأحيان - وهذا تعبيرها - «جعلت من نفسها ممرضة لأولها ومربية للثاني» .

* * *

وفي جنيف - وقد عبرت بها سريعاً على الطريق - كان الشعور العام في المقر الأوروبي للأمم المتحدة أن موقف انتظار التدايعيات والتفاعلات في شرق أوروبا لعب مع الأقدار ، وأنه لا بد على نحو أو آخر من مبادرة تمسك بزمام التطورات وتساعد قدر ما تستطيع على تنظيم حركة التدايعي والتفاعل ، وكان ملخص الآراء في جنيف كما يلي :

«إن الذين يتصورون أن الاتحاد السوفيتي على وشك الانهيار هم أغلب الظن جماعات تركت أمانها تصور حقائقها . إن الاتحاد السوفيتي في أزمة شاملة فكرية واقتصادية وسياسية - هذه حقيقة . وأن الامبراطورية الروسية ، وهي آخر الامبراطوريات الكبيرة في التاريخ ، تظهر عليها الآن علامات التفكك - هذه حقيقة أخرى . وأن الثورة الشيوعية العظمى التي قادها «لينين» والتي بدت لفترة من الفترات موجة المستقبل ، هي الآن عملاق فقد توازنه وأصابه الدوران - هذه أيضاً حقيقة ثالثة . لكن هذه الحقائق كلها - وربما غيرها - ليس من شأنها أن تدعو أحداً إلى كتابة نعي الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى في هذا العالم .. في هذا العصر . فالدولة السوفيتية تملك الموارد والامكانيات والقدرات

الكفيلة باجتياز أزمتهما . وأهم ما يستحق الملاحظة فيما يجرى الآن كله أن الدولة السوفيتية استفاقت أخيراً من وساوس الوهم والتردد ، وقررت أن تواجه الواقع وليكن ما يكون . وأخطر فترة في حياة أى كيان سياسى - بل وأى كائن إنسانى - هى اللحظة التى يقرر فيها مواجهة الواقع ، لأنه بهذا القرار يدخل امتحان المصائر فعلاً ، فإما النجاح وإما السقوط !» .

وفى جنيف لقيت - بين من لقيت - الأمير «صدر الدين أغاخان» وكنا فى قلعة «بلريف» التاريخية ، وهى مسكنه على شواطئ بحيرة «ليمان» . و «صدر الدين أغاخان» - أو «صدرى» كما يناديه أصدقاؤه المقربون - مراقب مهمم ومتابع دقيق للتطورات العالمية الجارية . فقد خدم فى الأمم المتحدة سنوات طويلة مفوضاً سامياً لشتون اللاجئين ، وهو الآن مفوض الأمم المتحدة لاحتلال السلام فى أفغانستان ، ومن هذا الموقع فإنه يستطيع أكثر من غيره أن يلمس نبض السياسة السوفيتية ، ثم هو إلى جانب هذا كله صديق مقرب وحميم من الرئيس الأمريكى «جورج بوش» . وكان رأى «صدرى» ونحن نتمشى على شاطئ البحيرة بعد الغداء ما ملخصه :

«إن التحولات التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى قاطعة ونهائية ، ولم يعد فى مقدور أحد أن يتراجع عنها ، واعتقادى أنها فرصة لا يجب أن تضيع .» .

* * *

وفى باريس - كان الصديق القديم «بيير سالينجر» (وكان «وزير اعلام» الرئيس الأمريكى الأسبق «جون كيندى» ، ويقوم الآن على إدارة المكاتب الأوروبية لوكالة «اى . بى . سى» ، أكبر شركات التليفزيون فى الولايات المتحدة الأمريكية) - قد قال لى :

- «إننى أيضاً ذاهب إلى موسكو فى منتصف الشهر القادم (أكتوبر) - وأجدنى مقتنعاً مثلك بأنه إذا أراد أحد أن يتعرف على حجم وطبيعة المتغيرات

التي تجرى في العالم ، فوسكو هي المرصد الأهم الآن » .
ثم أضاف :

- «إني اتفقت أيضاً مع صديقنا القديم «أليكسي ادجوي» (زوج «رادا» ابنة الزعيم السوفيتي الشهير «نيكيتا خروشوف» ورئيس تحرير جريدة «ازفستيا» السابق) على أن ألقاه هناك . إننا نفكر في التعاون معاً لإخراج فيلم تلفزيوني يكون عنوانه «جون ونيكيتا» (يقصد «جون كيندي» و«نيكيتا خروشوف») وقد كانت العلاقة بينهما - كما تتذكر - بداية الوفاق » .

واستطرد «بيير سالينجر» يقول : «دعنا إذن نلتقي في موسكو أواخر الشهر القادم ، ولنذهب معاً لزيارة «أليكسي ورادا» - وإذا لم أجيء إليكما في الموعد فلتعرفا أن شيئاً هاماً حدث أو على وشك أن يحدث » .

وحين ذهبت يوم ٣١ أكتوبر إلى لقاء «أليكسي» و «رادا» في شقتها في شارع «جوركي» قرب أسوار الكرملين ، لم يكن «بيير سالينجر» هناك . وكان معناها أن شيئاً هاماً حدث أو هو على وشك الحدوث . وما هي إلا ساعات حتى أعلن نبأ قمة البحر الأبيض المقبلة بين «بوش» و «جورباتشوف» . وكان «بيير سالينجر» على وجه اليقين مشغولاً بترتيبات تغطية وقائع هذا الاجتماع لمحنة «أى . بى . سى» ! .

. كان «جورباتشوف» قد أعطى كل الاشارات الصحيحة أو المطلوبة لكي يفتح المتشككين من غلاة المحافظين في واشنطن :

- كان قد تدخل بنفوذه الشخصي لكي تتألف في بولندا وزارة تسيطر عليها حركة التضامن المستقلة ، وليس الحزب الشيوعي .
- وكان قد وافق على أن يقوم الحزب الشيوعي المجري بتغيير نفسه ليصبح حزباً اشتراكياً ديمقراطياً لا يحتكر السلطة .
- وكان قد استعمل كل وسائله في الاقناع حتى تسمح حكومتنا المجر

وتشيكوسلوفاكيا بفتح الطرق أمام الألمان الشرقيين لكي يذهبوا إلى ألمانيا الغربية مادامت تلك رغبتهم !.

كانت هذه كلها اشارات تومئ إلى أن القبضة السوفيتية تخف عن أوروبا الشرقية .

ثم جاءت من وراء هذه الايماءات اشارة لعلها أهمها جميعاً . فإن الحكومة السوفيتية - برئاسته - كانت قد اتخذت قراراً بتعويم الروبل وتخفيض قيمته بنسبة ٩٠٪ تمهيداً لجعله عملة قابلة للتحويل ، وهى خطوة حاسمة لتهيئة الاقتصاد السوفيتي لأحكام قوانين السوق - وبالتالي التحاق هذا الاقتصاد بالاقتصاد العالمى ، وهذا تغيير أساسى لا يتصل بالاقتصاد فحسب وإنما يمتد إلى العقائد أيضاً .

وهكذا كان إعلان نبأ الاجتماع الكبير نصف مفاجأة .

أن يحدث لقاء فى منتصف الطريق .. لم يكن مفاجأة .

أن يحدث هذه اللحظة وبهذه الطريقة .. كانت المفاجأة هنا ! .

وفى كل الأحوال فإن فرصة رآها كثيرون فى العالم سائحة ومتاحة - لم تضع وكان هناك من أمسك بها ولو بعد تردد وطول تفكير ، خصوصاً بعد أن رأى تدفق التيار الجارف وهو يوشك أن يغير خريطة توازن الأمن الأوروبى - وألمانيا بؤرته !

* * *

وعشية اليوم الذى غادرت فيه موسكو - وقبل إعلان نبأ اجتماع قمة البحر الأبيض بساعات قليلة - التقيت على العشاء بمجموعة يندر أن تلتقى كلها فى نفس الموعد . نفس المكان .

من ناحية كان هناك «أناتولى دوبرنين» عضو رئاسة مجلس السوفيت الأعلى والمسئول الأول عن العلاقات الأمريكية السوفيتية بحكم أنه قضى ستا وعشرين

سنة بلا انقطاع سفيراً للاتحاد السوفيتي في واشنطن (من هذا الموقع تعامل مع سبعة من رؤساء الولايات المتحدة هم : «كنيدي» و «جونسون» و «نيكسون» و «فورد» و «كارتر» و «ريغان» و «بوش» ، إلى جانب وزراء خارجيتهم ومستشاريهم لشئون الأمن القومي جميعاً).

وكان إلى جانبه «جراسيموف» المتحدث الرسمي باسم «جورباتشوف» وواحد من أقرب معاونيه .

ومن ناحية أخرى كان هناك «زيجنيو برجينسكي» مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي الأسبق «جيمي كارتر» ، وهو في نفس الوقت - وبحكم أصله البولندي - واحد من أكبر الخبراء الأمريكيين في شئون شرق أوروبا .

وكان إلى جانبه السفير «جاك ماتلوك» السفير الأمريكي في موسكو وهو دبلوماسي من طراز رفيع اختاره «بوش» في هذه الظروف ليكون عين الولايات المتحدة وأذنها في الاتحاد السوفيتي .

وجلسنا - وكان معنا سفير مصر المقتدر في موسكو «أحمد ماهر» ... وهو نموذج لامع لجيل غير عادي في الدبلوماسية المصرية - ورحنا نتحدث فيما جرى ويجري . والغريب أن نقطة البداية في حوارنا كانت حديث الفرص الضائعة في العلاقات بين العملاقين على مستوى القمة الدولية . وكنت أنا الذي أثرته . وفي البداية - وبطبيعة الأمور ذاتها - تواصل الحوار ثنائياً بين «دوبرينين» و «برجينسكي» .

وقال «دوبرينين» :

«أكاد أقول إن أول فرصة ضاعت منا كانت مبكرة جداً وفي أيام «كنيدي» وقتها كانت هناك أزمة الصواريخ في كوبا . وأمكنا جميعاً احتواء الأزمة بمعجزة . كانت الظروف بالغة التعقيد حتى في مجال الاتصالات . أتذكر أثناء الأيام الحرجة من الأزمة أنني كنت أقابل «روبرت كنيدي» (شقيق الرئيس «جون كنيدي») في الساعة الثانية بعد منتصف كل ليلة لنبحث عن مخارج أو

حلول ، وقد اخترنا هذا الموعد للقائنا حتى نضمن السرية لمشاوراتنا . ولم تكن هناك أرقام صناعية للاتصالات كما هو الحال اليوم . وبعد كل واحد من اجتماعاتي مع « روبرت كنيدي » كنت أكتب تقريرى إلى موسكو بخط يدى ثم يأخذه موظف السفارة فى السفارة ، وبعد أن ينتهى من تشفيره كنا نضرب تليفونا لشركة « وسترن يونيون » للتلغراف فيجىء أحد موظفيها على موتورسيكل ويأخذ البرقية ويسرع بها إلى مكتب الشركة حيث آلة الإرسال فيدقها لموسكو ، وتمضى ساعات طويلة قبل أن يجيئنا الرد بنفس الطريقة وبنفس الأسلوب - هذا بيننا الأزمة تكاد تحبس أنفاس العالم .

المهم استطعنا تجاوز الأزمة . وأدرك « كنيدي » و « خروشوف » باستقراء دروسها أن أى مواجهة بين القوتين الكبيرتين مستحيلة ، وأن عليهما من هنا أن يبدأ السير فى طريق جديد . ولم نستطع مع الأسف أن نتقدم أكثر من خطوة واحدة هى الاتفاق على وقف التجارب النووية فى الفضاء !» .

ورد « برجيسكى » بعباراته القصيرة التى تعكس تفكيره المنظم والمرتب وكأن عباراته مخروطة بسكين :

- « كان صعباً فى تلك الظروف أن نصل إلى ما هو أكثر لأن سياستكم فى أمريكا اللاتينية بدت أمامنا مثيرة للقلق . وكذلك سياساتكم فى الشرق الأوسط » .

وقال « دوبرنين » :

- « ومع ذلك سنة ١٩٦٣ كنا على وشك الامساك بالفرصة مرة أخرى . اتفقنا على كل شىء ولم تبق إلا نقطة واحدة هى نقطة عدد محطات التفتيش فى كل من البلدين . توقعنا أن نطلبوا خمسا ، ثم طلبتم ثمانى ، وبين « خمس أو ثمان » تعثر الاتفاق » .

ورد « برجيسكى » :

– « الحقيقة أنني لا أستطيع أن أناقشك في هذه المسألة . فإننا لم أتابعها ولم أكن هناك » .

ثم يستدرك « برجينسكى » :

– لكننى أستطيع أن أناقشك فى مسألة أخرى هى قراركم بالدخول إلى أفغانستان ! » .

وتتم « دوبرينين » بما معناه إن ذلك كان قراراً انفعالياً !
والتقطها « برجينسكى » على الفور قائلاً :

– « لقد كنت أنا يومها مستشار الأمن القومى فى البيت الأبيض ، ووجدت أمامى جيشاً سوفيتياً يدخل إلى أفغانستان ؟ كيف كان لى أن أعرف « أنها انفعال » وأنه كان قراراً اتخذته القيادة السوفيتية على عجل ، ولم يكن يعلم به غير « بريجنيف » الذى اتخذته بالتشاور مع اثنين فقط من زملائه (« كوسيجين » و « اندروبووف ») – بعد طلب من المارشال « أوستينوف » وزير الدفاع ؟ ! .

من موقعى فى البيت الأبيض كان علىّ أن أقدم تقدير موقف لرئيس الولايات المتحدة باعتبارى مستشاره للأمن القومى .

وكان تقديرى أنها خطوة محسوبة لها ما وراءها . أى أنها جزء من مخطط كامل موجه بعد أفغانستان إلى الخليج .

وقد تصرفنا على هذا الأساس ، ولم يكن لدينا خيار .»

* * *

وقال « دوبرينين » :

– « الحقيقة أن منطلق القوة أخذنا جميعاً وقد خدعنا أنفسنا . كلنا كنا على استعداد لأن نخدع أنفسنا . سوف أروى لكم قصة :

فى أواخر الستينيات كان « ليندون جونسون » رئيساً للولايات المتحدة . وكان

نائبه هو «هيوبرت همفري». وذات يوم في هذه الفترة قام وزير الدفاع السوفيتي الماريشال «أندريه جريتشكو» بزيارة لواشنطن التقى خلالها بنائب الرئيس. وجلس وزير الدفاع السوفيتي ونائب الرئيس الأمريكي متجاورين على دعوة عشاء، وشرب الاثنان وراحا يتحدثان في كل شيء ولا شيء. وقادهما الحديث إلى الصيد، وقال وزير الدفاع السوفيتي لنائب الرئيس الأمريكي أن «أمتع» تجارب الصيد هي صيد الخنازير البرية في غابات روسيا وأنه لا بد أن يجرب هذه «المتعة» بنفسه. وانتهى العشاء، وانتهت زيارة وزير الدفاع السوفيتي إلى واشنطن واعتبرنا أنه مشهد بلغ نهايته بين الرجلين. ولكن يبدو أن نائب الرئيس - «همفري» - أخذ حديث السهرة والشراب جداً، فذهب إلى الرئيس «جونسون» يقول له: «إن وزير الدفاع السوفيتي دعاه إلى روسيا». ووافق الرئيس على الفكرة واتصل بي «همفري» يقول لي «إنه قرر أن يقبل دعوة الماريشال «جريتشكو» وهو ينتظر تحديد موعد». وبعثت برفقية إلى وزير الدفاع أقول له فيها «إن نائب الرئيس قرر أن يقبل دعوتك لزيارة موسكو». وبعث «جريتشكو» إلى برفقية يقول فيها «أية دعوة؟ إنني لم أوجه إليه شيئاً! وعاودت الاتصال بموسكو أقول لهم «إن نائب الرئيس فهم أن هناك دعوة وأنه وقد بلغت الأمور هذا الحد فلم يعد هناك مفر من توجيه دعوة رسمية». واجتمع المكتب السياسي وناقش ووافق وتلقى «همفري» من «جريتشكو» تأكيداً للدعوة، وتحدد موعداً بالفعل وسافر «همفري». وذهب الاثنان إلى رحلة لصيد الخنازير البرية. وكان عليهما ذات ليلة أن يتناولوا العشاء في استراحة صيد ثم يخرجوا معاً بعد منتصف الليل لصيد الخنازير البرية. وعلى مائدة العشاء أفرط الاثنان فيما يبدو في الطعام والشراب وناما. وفي الصباح استيقظ الماريشال «جريتشكو» مبكراً وتنبه لما حدث وطلب من مجموعة قناصة مرافقة له أن تصطاد له خنزيراً برياً ضخماً بأى ثمن وأن تجيء به إلى استراحة الصيد قبل أن يستيقظ نائب الرئيس الأمريكي. وعندما استيقظ «همفري» كان هناك خنزير برى مضرج بدمه أمام الاستراحة، وقيل له إن هذا هو الخنزير الذي اصطاده!

وراح «همفري» يهرش رأسه ليتذكر ما إذا كان أمسك بالأمس بندقية وأطلق منها رصاصة أصابت ذلك الخنزير البرى الضخم !

وبعد قليل اقتنع «همفري» بأنه «لابد» فعل هذا وهو نصف منتشر ونصف نعيسان ! وعندما جاء الوقت ليسافر «همفري» عائداً إلى بلاده وجد على طائرته رأس الخنزير البرى «الذى اصطاده» محنطاً وجاهزاً للسفر معه ...»

ويستغرق «دوبرينين» فى الضحك وهو يقول «كان المشهد المثير وقتها مشهد نائب الرئيس العائد إلى واشنطن والنازل من الطائرة ووراءه رأس الخنزير البرى المحنط ، وعدسات الصحافة والتليفزيون تلتقط الصور له مع «الوحش الذى استطاع بطلقة واحدة أن يرديه قتيلاً»

هكذا كان خداع النفس فى علاقاتنا .

وكانت تلك فترة مقدمات «الوفاق» !.

* * *

وسحبت الحوار من منطقة الفرص الضائعة ومنطق القوة الذى أخذ الجميع وخداع النفس - إلى منطقة أخرى .

قلت :

- «المهم .. أين نحن ؟ - ما هو الوضع فى الاتحاد السوفيتى الآن ... وفى كل أوروبا الشرقية ؟».

ورد دوبرينين :

- «بالنسبة لما يجرى فى الاتحاد السوفيتى هناك الآن كلمتان تلخصان كل شىء : «البيروسترويكا» و«الجلاسنوست» . والبيروسترويكا معناها بالضبط إعادة البناء . والجلاسنوست معناها الحرفى «الحديث بصوت عال» ، أى المصارحة .. مصارحة النفس والآخرين «

وقال لى «برجينسكى» :

- «إنني أستطيع أن أقول لك شيئاً عما يجري في أوروبا الشرقية . هناك انتقلنا من مبدأ «بريخنيف» إلى مبدأ «سيناترا» .»

ولم يبد على أنى فهمت ، واستطرد «برجينسكى» موضحاً :

- كانت الفكرة الأساسية في مبدأ «بريخنيف» هي حق الاتحاد السوفيتى في التدخل ولو بالقوة إذا ما حدث تهديد - من وجهة نظره - للنظم الداخلية أو الاجتماعية لأى بلد من بلدان أوروبا الشرقية - ذلك هو المبدأ الذى تذرعوا به في التدخل في تشيكوسلوفاكيا مثلاً .

أما مبدأ «سيناترا» فلعلك تذكر أشهر أغاني «فرانك سيناترا» وهي أغنية «في طريق وحدى» «Going my way» - الآن كل بلد في أوروبا الشرقية يسير في طريقه وحده .

وألححت على «برجينسكى» أن يقول لى رأيه وليس رأى «فرانك سيناترا» وكان رأيه كما يلي :

- الحقيقة هي أن هناك نقطة أساسية تستوقفنى ، وهي :

أن تأثير أى دولة عظمى يرتبط بعدة عوامل للقوة ، وهي بالترتيب :

١- القوة الاقتصادية .

٢- قوة التماسك الاجتماعى .

٣- قوة التلاقى على هدف قومى محدد .

وأخيراً :

٤- نجىء القوة المسلحة وامكانياتها .

وفي الوقت الراهن ، ولسنوات قادمة ، فإن عناصر القوة الثلاثة الأولى ليست متوافرة لدى الاتحاد السوفيتى ، أو هي على الأقل في حالة تفكك وسيولة .

وبالتالى فإن عنصر التأثير الوحيد الباقى له كدولة عظمى - بل كواحدة من

القوتين الأعظم - هو عنصر القوة المسلحة . والنقطة الأساسية التي تستوقفني ترتيباً على ذلك إذن هي : « هل أن الاتحاد السوفيتي جاهز فعلاً لعالم جديد من السلام ، وبلا حروب ساخنة أو باردة . وإذا كان ذلك فما هي وسيلته للتأثير في تشكيل هذا العالم الجديد ؟ - إذا لم تكن القوة العسكرية - وجودها أو ظلها - فما هي وسيلتهم للتأثير في شكل السلام الذي أشعر أنهم يريدونه فعلاً؟! » .

وطال الحوار وتشعبت أطرافه حتى بعد أن دقت الساعة في موسكو منتصف الليل ثم تجاوزته ! .

* * *

و حين عدت إلى فندق « سافوي » الذي كنت أنزل فيه أثناء إقامتي في العاصمة السوفيتية ، وهو فندق من فنادق الانفتاح الجديد في الاتحاد السوفيتي تديره مجموعة فنلندية - جلست أكتب ملاحظاتي ومذكراتي عن نشاطي اليومي في الاتحاد السوفيتي . ووجدتني أتوقف طويلاً أمام وصف « دوبرنين » لما يجري في الاتحاد السوفيتي : « البيروسترويكا » (إعادة البناء) ، و « الجلاسنوست » (الكلام بصوت عال) .

سألت نفسي طويلاً : ماذا وراء الألفاظ والشعارات ؟ .
وفي ساعات الفجر الأولى بدت لي الاجابة شديدة الوضوح تؤكد لها التجربة الحية لأسبوعين كاملين في الاتحاد السوفيتي :

- « البيروسترويكا » أي إعادة البناء، معناها ببساطة أن ماهو قائم غير قادر على البقاء . أصابه التصدع على الأقل ولم يعد مجرد الترميم يكفي ، بل أصبحت مقتضيات الأمان تملئ مهمة إعادة بنائه .
- « الجلاسنوست » أي الكلام بصوت عال ، ترتيب منطقي على ماسبق مؤداه أن الموقف يفرض الكلام بصوت عال ، ومصارحة النفس والآخريين بنظرة الحالة التي آل إليها البناء الذي يعيشون فيه بما أصبح يملئ مهمة إعادة بنائه .

أى أن هناك صلة عضوية بين اللفظين والشعارين . أحدهما يترتب على الآخر . الصدع خطير في بناء الاتحاد السوفيتي ، وبما أصبح ضرورياً معه أن تكون « البيروسترويكا » .

ونتائج الصدع لم يعد ممكناً إخفاء مخاطرها ، وبما أصبح ضرورياً معه أن تكون « الجلاسنوست » .

وقبل أن آوى إلى فراشى استعداداً ليوم جديد مددت يدي إلى مفتاح جهاز التليفزيون في الفندق الافتتاحي ، وهو مضبوط على محطة الأخبار الأمريكية الشهيرة « سي . إن . إن » (وهذه الصلة بالعالم الخارجى هي الميزة الوحيدة لفنادق الافتتاح في موسكو) - وكانت لا تزال تعرض صور زلزال « سان فرانسيسكو » .

وكنت أتابع أخبار زلزال « سان فرانسيسكو » لأسباب إنسانية .

وخطر لى - في تلك الساعة من الفجر - أن ما شهدته في الاتحاد السوفيتي خلال أسبوعين كاملين هو - من أسباب مختلفة - زلزال أكبر وأشد جساماً وهولاً .

.....
.....

وحين عدت إلى القاهرة كان أول ما فعلته حين دخلت مكنتي أن ممدت يدي إلى موسوعة العلوم الصادرة عن « ماجروهيل » أبحث تحت مدخل الزلازل عن أبسط تعليل لها ، وتوصلت إلى ما يلي :

« إن الزلازل اهتزازات عنيفة ترج منطقة من سطح الأرض بعنف مدمر ، وقد تصل قوة هذه الاهتزازات إلى حد إصابة سطح الأرض بالتشقق والانكسار ، وذلك يحدث نتيجة لتحرك واحتكاك كتل جيولوجية ضخمة في باطن الأرض ، أو نتيجة لنشاط بركاني تصدر عنه حرارة زائدة أو غازات أو اشعاعات تتسرب مندفعة إلى فجوات واسعة بين هذه الكتل .. وعندما يجيء

الزلازل فإن هزة خفيفة تمهد له ، وبعد أن يقع الزلزال الكبير فإن هزات لاحقة لا بد أن تعقبه ، وبعضها يمكن أن يكون في قوة الزلزال الكبير وخطره . « .

كان هذا ما حدث في كاليفورنيا - طبيعياً .

وكان هو نفسه - وعلى نطاق أكبر وأوسع - ما حدث في الاتحاد السوفيتي فكرياً واجتماعياً واقتصادياً ، وبالتالي سياسياً ، مع العلم بأن الأمم العظيمة تستطيع أن تعيش الزلازل ، وتعيش بعدها ! .

ولسنوات طويلة - أراد العالم أو لم يرد - فإن الزلزال السوفيتي واصل إليه ومؤثر فيه . كما أن هزاته اللاحقة تستدعي الكثير من اليقظة والاستعداد .

وهكذا أصل إلى حديث الزلزال السوفيتي .

ثلاث صور للأحوال في

الاتحاد السوفيتي اليوم

- الصورة من واشنطن
- من اجتماعات موسكو
- من حياة كل يوم فيها

الوطنية النائمة

في أحضان الدين

وفوقها العلم الشيوعي !

(٢)

سألني الصديق القديم الدكتور « ايحور بيلايف » نائب رئيس تحرير جريدة « برفادا » والمسئول فيها عن شئون آسيا وأفريقيا - وكان قد تفضل كريما ومعه جمع من الأصدقاء باستقبالي في مطار « شيرمتيفو ٢ » عند وصولي إلى موسكو : - « متى كانت آخر زيارة لك إلى بلادنا ؟ » .

وقلت على استحياء محاولا مداراة قصوري : « إنني زرت الاتحاد السوفيتي لأول مرة في نوفمبر سنة ١٩٥٧ . ومن تلك السنة - ١٩٥٧ - إلى سنة ١٩٧٠ عدت إليه تسع عشرة مرة . ثم انقطعت من سنة ١٩٧٠ حتى اليوم - ١٩٩٠ تقريبا - والآن بعد عشرين سنة أعود للزيارة العشرين . وهي مفارقة غريبة في الأرقام . »

ورد « ايحور » بلغته العربية التي تجمع بين وقع اللغة الروسية ولهجة أهل الشام ، ومنها كان أستاذه في اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية : « هذا غياب طويل .. طويل جدا » . وسلمت له بصدق ملاحظته وحقه فيها ، وأضاف هو قائلا : « في هذه السنوات العشرين حدثت أشياء كثيرة ، تغيرت أحوال ومازالت تتغير ! » - وحاولت أن أدقق في عبارته .. مضمونها ، ونبرتها ، وتطلعت إلى ملامح وجهه . ولكنها جميعا كانت محايدة .. الكلمات والنبرة والملامح . تقرير حقيقة خاليا من أي « حكم قيمة » - كما يقولون . تقرير تعرف منه « حالة » دون « رأى » معين في هذه « الحالة » ! .

ولم أشأ أن أترك « ايجور » وشأنه . وسألته : « ولكنك لم تقل لى إذا كانت هذه التغييرات التى حدثت فى غيابى إلى أحسن أو إلى أسوأ ؟ » - وكان رده محايدا أيضا : « ظننتك قادما لتزى بنفسك » .. وكانت متابعة السؤال بعد ذلك تجاوزا يتقل به من حد الاستفهام إلى حد الاحراج ، وهو مالم يكن قصدى !

كان تقرير « ايجور بيلاييف » على قصره الشديد محايدا - ولكنى لم أكن فى مثل حياده . وذلك ذنب اعترف به دون خجل وأظنه من طبائع البشر . فكلهم له فى كل مسألة رأى مسبق ، وكلهم له فى كل أمر ميل وهوى . بل لعلى أكثر من ذلك أقول إن العقل فى حد ذاته اختيار . والاختيار بدوره موقف يتفق أو يختلف ولكنه لا يكون محايدا . إلا إذا كان ذلك املاء ظروف تفرض الحياد لدواع تقتضيه . وربما قلت إنه كان لى باستمرار رأى فى التجربة السوفيتية ، وكنت أفرق دواما بين هذا الرأى فى التجربة نفسها وبين سياسة الاتحاد السوفيتى فى العالم ، وبخاصة ازاء العالم الثالث ، وبنوع أخص تجاه القضايا العربية . فأنا أعرف مدى تأييد الاتحاد السوفيتى لمصر - على سبيل المثال - وحجم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التى قدمها لها ، والشواهد قائمة فى مئات المشروعات الخيوية التى تعيش عليها مصر حتى هذه اللحظة ، وفى مقدمتها السد العالى وكهربة الريف بكل نتائجها الاقتصادية الاجتماعية الضخمة . كما أنها قائمة فى حقيقة أن كل حروب مصر الحديثة - من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٧٣ - جرت جميعا بسلاح سوفيتى لم يزد ما دفعته مصر فيه كله على بليون دولار واحد ، ولو أنها اشترته من الغرب لزد ثمنه عشرات المرات - ولكن تلك قضية أخرى ، ولا ينبغى الخلط بين القضايا خصوصا إذا كان الهدف هو التعرف على أحوال المجتمع السوفيتى من الداخل ، بصرف النظر عن السياسات الخارجية للدولة السوفيتية وما أثر فيها من اعتبارات وتقديرات !

ولقد أتاحت لى الظروف أن أناقش التجربة - فيما مضى - مع كثيرين من قادة الاتحاد السوفيتى ، وبينهم « نيكيتا خروشوف » و « ليونيد بريجنيف »

و«ميخائيل سوسلوف» و«اليكسى كوسيجين» و«يورى اندروبوف» و«أندريه جروميكو» وعشرات غيرهم . ولم يكن ما أقوله خصوصا في مجال الحريات الإنسانية وفي حقوق الأفراد بما فيها حق الملكية ، وفي الموقف من الدين ، وفي تجاوزات السلطة - يعجبهم ، ومع ذلك فقد سمحت لنفسى أن أقوله لهم وأكتبه - ولم يكن أى منهم بعد ذلك على استعداد لأن يصدق أن هناك من يستطيع أن يكون ناقدا إلى هذا الحد للسياسة السوفيتية في الداخل - وفي نفس الوقت يكون مقدرًا إلى هذا الحد للسياسة السوفيتية في الخارج .

ومع ذلك فلقد كان تصورى حتى سنوات قريبة أن الاتحاد السوفيتي يمثل قصة نجاح اقتصادي ضخم ، وإن كانت تكاليفه الإنسانية فادحة الثمن .

وحيث جاء «اندروبوف» إلى القمة في الاتحاد السوفيتي بعد وفاة «بريجنيف» في نوفمبر سنة ١٩٨٢ ، وبدا أنه يعطى أولوية كبرى لتصحیح أوضاع الداخل - فلقد توهمت ، وربما توهم غيرى - أن هناك نوعا من التوازن يعود إلى التجربة السوفيتية ، أى أن جانبها الإنساني على وشك أن يعدل نفسه ليتلاءم مع المبادئ الأصلية للثورة السوفيتية ومع نجاحها الاقتصادي كما كان يبدو وقتها .

وعندما وصل «جورباتشوف» إلى القمة في الكرملين في مارس سنة ١٩٨٥ - ثم اضطر اضطرارا إلى طرح سياسة «البيروسترويكا» (إعادة البناء) و«الجلاسنوست» (الحديث بصوت عال أو المصارحة) - كانت المفاجأة الكبرى . فقد ظهر أن الخلل الاقتصادي الاجتماعي في التجربة السوفيتية لا يقل خطرا عن التجاوزات الإنسانية والحقوقية (دستورا وقانونا) في هذه التجربة التي استطاعت - وهذه ظاهرة تدعو إلى إطالة التفكير والتأمل - حقا طويلة أن تثير وتلهم كتلا عظيمة من البشر وتشد خيالهم !

ولقد رأيت «ميخائيل جورباتشوف» يتحدث في قاعة البرلمان السوفيتي . وكان إلى جانبي مترجم ينقل إلى أقواله . وسمعت «جورباتشوف» يقول :

« عندما جئت إلى السلطة وجدت الأناء السوفيتي على النار يغلي ، وتصورت أن المطلوب هو رفع الغطاء عن الأناء لتنفيس البخار . ولكن ما رأيته داخل الأناء كان أصعب مما تصورت . ولم يكن في مقدوري أن أعيد الغطاء والتظاهر بأنني لا أسمع ولا أرى شيئا ، وإنما وجدت أن واجبي يحتم على أن أصارح الشعب السوفيتي بالحقائق ، وأن أدعوه - وهو وحده القادر - إلى المشاركة في مواجهة الخطر ! » .

والواقع أنه كان في استطاعتي أن أفهم « جورباتشوف » من حقيقة أنني مثله فوجئت من أول نظرة على أناء المجتمع السوفيتي الواصل إلى درجة الغليان والمعبا بأكدار وأحزان قائمة ومعتمة ! .

كانت لي ، ومنذ زمن طويل كما سبق وقلت - تحفظات وانتقادات . وبعد موت « بريجنيف » كانت صحف الغرب ملأى بالتوقعات السوداء ، وكنت مترددا في التصديق .

ولقيت عددا من الأصدقاء السوفيت في فترة حكم « تشرينيكو » . وبينهم الدكتور « فاسيليف » وهو عضو بارز في كلية الاستشراق بجامعة موسكو (وأنا الآن في حل من ذكر اسمه) وكان حديثهم . وحديثه بالذات ، معي صريحا بمقدار ما كان مخيفا .

واطلعت على تقارير كثيرة كان معظمها في نفس الاتجاه المتطير بالشؤم .

* * *

وتخاورت مع أصدقاء أثق في أحكامهم زاروا الاتحاد السوفيتي بعد أن بدأت الحقائق تفرض نفسها على الجميع ، وكانت شهاداتهم جميعا مدعاة لكثير جدا من القلق والهم .

واتذكر صديقا عزيزا وغاليا ظل سنوات طويلة في عداد « المؤمنين » . وبسبب إيمانه قضى زهرة شبابه في سجون مصر عبر عهود مختلفة . ورأيته يجلس

أمامي بعد عودته من زيارة للاتحاد السوفيتي حائرا لا يعرف ما يقول ولا عن أي نقطة يبدأ . ثم غلبه الانفعال وإذا هو يقول « إنني لا أصدق أنني أضعت عمري لكي أرى في النهاية ما رأيته » !

وقال لي صديق آخر وهو من أذكى من أعرف في مصر: « ألسنت ذاهبا بنفسك لترى ؟ » وقلت : « نعم » . وقال : « لي عندك رجاء .. هم هناك في أزمة عنيفة وهم يحتاجون إلى كل رأي . إذا كان في استطاعتك أن تقول لهم شيئا فلا تتردد ولكن حاذر قدر ما تستطيع أن يحسوا فيما تقول بأننا الآن نعطيهم درسا أو أننا رأينا مبكرا ما رأوه هم الآن متأخرين . أنك سوف تجدهم في حيرة وسوف يحدثونك بصراحة ، ولك أن تحدثهم بصراحة ولكن من موقع الصديق . » .

وكذلك فعلت ، أو حاولت - رغم أن الحقائق التي رأيتها متفجرة أمامي كانت مثل قنابل من العيار الثقيل !

وكان أول ما سمعته عندما وصلت إلى فندق «سافوي» ، وجاء أحد الأصدقاء من أكاديمية الاستشراق يرحب بي - نكتة تشيع مثلها عشرات ومئات في موسكو .

تقول النكتة أن «نيكيتا خروشوف» (زعيم الاتحاد السوفيتي من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٤) التقى بخلفه «ليونيد بريجنيف» (زعيم الاتحاد السوفيتي من سنة ١٩٦٤ حتى سنة ١٩٨٢) في السماء بعد أن مات الاثنان . وكانت أصداء ما يجري في الاتحاد السوفيتي وفي مقدمته «البيروسترويكا» (إعادة البناء) تصل إليهما حيث هما في العالم الآخر ! .

وتقدم «خروشوف» من «بريجنيف» يقول له : «ليونيد اليشا» (وهم في الاتحاد السوفيتي يلحقون اسم الأب باسم الابن تكريما وإعزازا) «هل بنيت شيئا عندما كنت هناك» ؟ ورد «بريجنيف» بالنفي وبأنه لم يبن شيئا . وجاء الدور على «بريجنيف» ليسأل فسأل «خروشوف» قائلا : «نيكيتا سيرجيفتش» ...

« وأنت ؟ هل بنيت شيئاً عندما كنت هناك ؟ » ورد « خروشوف » قائلاً :
« أبداً » .

وبدت الحيرة على وجه « خروشوف » ثم إذا هو يسأل « بريجنيف » : « إذن
فما هو ذلك الذى يعيدون بناءه ؟ ! »

* * *

وحتى الآن كنا فى حديث الانطباعات . وآن أن نتقل منه إلى حديث الصور ،
وأكتفى منها بثلاث لعلها قادرة على أن تحيط بأبعاد الأزمة التى تمسك بجناب
الاتحاد السوفيتى الآن :

الصورة الأولى : صورة الموقف الاقتصادى - الاجتماعى وتأثيره على مركز
« جورباتشوف » كما تراها أعلى أجهزة المعلومات التى تخدم صانع القرار
الأمريكى . وهذه الصورة يعرضها تقرير سرى اشتركت فى كتابته وكالة المخابرات
المركزية الأمريكية ووكالة المخابرات العسكرية ، وقدم لمجلس الأمن القومى
الأمريكى فى البيت الأبيض استعداداً لرئاسة « جورج بوش » للولايات
المتحدة . ورأى الرئيس الأمريكى الجديد ارساله إلى لجنة الشؤون الخارجية
والأمن القومى للكونجرس . وتفضل أحد الأصدقاء من أعضاء هذه اللجنة
فأرسل إلى - بصورة شخصية - نسخة منه قبل أسابيع ، ويقول التقرير فى
مقدمته مايلى : « إن خطط جورباتشوف لتحريك الاقتصاد السوفيتى المتجمد
وصلت إلى مأزق سنة ١٩٨٧ بسبب مشاكل متعددة بينها عوامل الجو ،
واختناقات النقل ، والارتباكات الناشئة عن ادخال اصلاحات اقتصادية .
وكانت النتيجة النهائية أن النمو الذى تحقق فى الاقتصاد السوفيتى سنة ١٩٨٧ كان
أقل من واحد فى المائة ، وهى نسبة نمو تعيد إلى الأذهان ما كان يحدث فى عصر
الركود أيام « بريجنيف » .

ولقد حاول « جورباتشوف » ادخال نظم لمراقبة الجودة فى الصناعة طبقاً

لبرنامج المعروف « جوسبريمكا » وركز على ١٥٠٠ مؤسسة صناعية ، ولكن هذه النظم الجديدة أدت إلى ارتباك في الإنتاج خصوصا في الأشهر الأولى من السنة . ولقد أدى نظام اصلاح الأجور الجديد وتخفيض أعداد العاملين وتغيير القواعد المالية - إلى تعقيد مهمة المديرين وجعلت تصرفاتهم مشوبة بطابع الارتباك . وهكذا لم يزد نمو القطاع الصناعي على ١,٥٪ ، وأما بقية القطاعات فإن التوسع فيها سنة ١٩٨٧ كان شبه معدوم . كما هبط الإنتاج الزراعي بمعدل ٣٪ عن العام السابق ، وكانت لهذا نتائج خطيرة .

ومن الواضح أن « جورباتشوف » يحتاج إلى تحريك اقتصاد بلاده بما يضمن نسبة أعلى من النمو ، وبما يحقق توافر سلع استهلاكية لأسواق جائعة بشدة إلى مثل هذه السلع . وعليه بالتأكيد أن يتوصل إلى برنامج كامل للتحديث . ومشكلته أن مثل هذا البرنامج يحتاج إلى استثمارات كثيفة ليس أمامه سبيل للحصول عليها غير الخيارات التالية :

١- أن يقطع من الانفاق الحربي ، فالخصومات العسكرية تحصل وحدها مباشرة على ما بين ١٥ إلى ١٧٪ من مجمل الناتج القومي للاتحاد السوفيتي ، عدا ما يصل إليها بطريق غير مباشر من قطاعات أخرى مثل قطاع الآلات الثقيلة ، وقطاع التشييد ، وقطاع الابحاث العلمية - والمشكلة في هذا الخيار هي هل تقبل القوات المسلحة مثل هذا الاقتطاع من ميزانيتها؟! .

٢- أن حوالى خمسين في المائة من الاستثمارات السوفيتية الحالية مخصصة للطاقة والزراعة ، فإذا استطاع « جورباتشوف » أن ينقل من هذه الاستثمارات جزءا مؤثرا يوجهه إلى الصناعات الاستهلاكية لتوفير السلع اللازمة للشعب ، فإن ذلك قد يخفف من حدة الأزمة - والمشكلة ، في هذا الخيار الثاني ، أن عملية نقل هذه الاستثمارات من الطاقة والزراعة يمكن أن تؤدي إلى مشاكل خطيرة تمس مجمل الاقتصاد السوفيتي .

٣- الحصول على موارد خارجية عن طريق التجارة أو استيراد التكنولوجيا ،

وهذا خيار تقوم دونه عقبات لاتجعله ميسرا في الظروف الحالية .
والنتيجة أن المجتمع السوفيتي سوف يواجه في السنوات القادمة توترات
شديدة تؤثر حتى على القيادة السوفيتية نفسها . ويضاعف من أثر هذه
التوترات أن البيروقراطية السوفيتية تشعر باحباط شديد نتيجة لفقدان بعض
امتيازاتها ، إلى جانب أن قيادات القوات المسلحة تنتابها الهواجس من
احتمالات المساس بميزانيتها أو امتيازاتها .» .

ثم يمضى التقرير فيشير إلى أثر الوضع الاقتصادي على تفاقم مشاكل
القوميات وإلى زيادة فجوة الشك بين الشعب والحزب والحكومة ، وإلى تصاعد
حركة الاحتجاجات تحت أعلام مختلفة !

والصورة الثانية أكثر ظلمة ، وهي هذه المرة رسمية ومن داخل الاتحاد
السوفيتي ، بل ومن داخل دوائر صنع القرار . فقد تواجدت في موسكو مع
انعقاد مؤتمر تحت عنوان « البيروسترويكا والعالم الثالث » ، وحرصت على حضور
بعض جلسات هذا المؤتمر ، وبالذات جلسة أخيرة غير رسمية - بلا أوراق عمل
وبلا محاضر- رأى فيها السوفيت أن يضعوا بعض الحقائق عن أحوالهم أمام
أصدقائهم في العالم الثالث حتى يفهموا فلا يسرفوا في اللوم والعتاب !- وكان
هناك اثنان من المتحدثين الرسميين ، أولها نائب وزير العدل الدكتور
« فيشنسكى » ، والثاني هو الدكتور « جرانوفيتش » رئيس أكاديمية الاقتصاد
العليا للاتحاد السوفيتي .

وقد بدأ نائب وزير العدل ، وركز في حديثه على النقاط التالية :

- « إن جهاز الدولة والحزب ظل لحقب طويلة يمارس سلطته خارج القوانين
وخارج الدستور ، وقد جاء الوقت لتأسيس دولة قائمة على القانون .» .
- « لقد كانت في الاتحاد السوفيتي غابة « مما يسمى بالقوانين » ، وكمثال
لذلك فإننا أحصينا أنه في سنة ١٩٧٠ كان كل قانون يصدر يحتاج إلى

خمسة قوانين إضافية من مجلس السوفيت الأعلى تجعله قابلاً للتطبيق . ثم يحتاج إلى ٦٠ قراراً توضيحياً من مجلس الوزراء ، إلى جانب عدد لا يحصى من اللوائح المنظمة للتصرفات . وكان هذا الكم الهائل من القوانين الأصلية والإضافية والقرارات واللوائح أكبر من أن يتعامل معه أحد .» .

- « إن دولتنا لم تشهد أى تطور في المجتمع المدني منذ قيامها ، ولا بد الآن من قوانين تضمن حق الشعب في أن يقول رأيه بما في ذلك حقه في أن يقول « لا » عند اللزوم . ومنذ قامت « البيروسترويكا » حدث انفجار في التجمعات المدنية لا يمكن احصاؤه ، وهناك من ينادون بجل هذه التجمعات ، وليس ذلك مطلوباً وإنما المطلوب هو التقنين .» .
- « إن الاقتصاد السوفيتي كان خارج القانون وأحياناً فوقه ، والاقتصاد يحتاج الآن إلى استقرار حقوقى . وكان « لينين » هو القائل بأن « الاقتصاد تستحيل إدارته بالأمر » . وهذه المشكلة تزداد تعقيداً إذا كان هذا الاقتصاد مطالباً باستيعاب التكنولوجيا الحديثة والاستجابة مع حركة السوق !» .
- إن القوانين لم تكن تقدم أى ضمان للملكية ، ونحن الآن في حاجة إلى تجديد علاقات الملكية بأشكالها المختلفة . ولقد جرى تشويه فكرة الملكية لسنوات طويلة ، وأن أن نعطي لها احترامها بالقانون دون خوف . فملكية الدولة سنة ٨٨ وصلت إلى ٨٨٪ من كل شيء ، في حين لم تزد الملكية الفردية عن ٠,٠٣٢٪ والباقي داخل في الملكية التعاونية . والحقيقة أن احتكار الدولة للملكية أضاع من الأفراد تماماً كل حافز إلى المبادرة .» .

.....
.....

وبعد نائب وزير العدل ، وقف رئيس أكاديمية الاقتصاد العليا ، وبدوره ركز حديثه على النقاط التالية :

- « إن مركزية التخطيط والإدارة أدت إلى كوارث اقتصادية ، فلدينا الآن أكثر من مائة ألف مؤسسة كبيرة في الصناعة والزراعة تقدم ٢٨ مليون نوع من المنتجات ، ولا يمكن التخطيط لهذا كله أو إدارته مركزيا . »
 - « إن التخطيط والإدارة المركزية على هذا النطاق الواسع أدت إلى هبوط في نوعية السلع المنتجة لم يضعف امكانات التصدير فحسب ، ولكن صد المستهلك السوفيتي نفسه الذي فقد ثقته في المنتج السوفيتي ، وراح يبحث عن أى وسيلة للحصول على سلع من الخارج . »
 - « إننا خرجنا بعيدا عن حركة السوق العالمية ، وذلك يعكس نفسه في سعر صرف الروبل . فبينما السعر الرسمي هو أن الروبل يشتري دولارا ونصفا - فإن الحقيقة الواقعة أن الدولار الواحد يشتري ١٢ روبلا ، وهذا أدى إلى سوق ظل واسعة . »
 - « إن التقديرات مختلفة عن حجم التعاملات في سوق الظل (السوق السوداء) فبينما بعض الحسابات تذهب إلى تقديرها في حدود ١٠٠ بليون دولار - فإن هناك تقديرات أخرى تصل بها إلى ٢٨٠ بليون دولار ، وأيا كان الرقم الصحيح فإن القضية خطيرة . »
 - « إن الحقيقة التي يجب أن نقولها مع الأسف - لرفاقنا في العالم الثالث - هي أن لدينا ١٢ مليون عاطل أو شبه عاطل في الاتحاد السوفيتي . »
- ولعل رئيس أكاديمية الاقتصاد أحس بأن سامعيه من العالم الثالث أصيبوا بنوع من الصدمة وهم يستمعون إليه - فاستدرك يقول :
- « إنني أريد أن ألح عليكم في ألا تنسوا أن الرأسمالية واجهت أزمته ووصلت إلى حالة انهيار كامل سنة ١٩٢٩ ! »
- وهو قول صحيح على أى حال ...

* * *

وتبقى الصورة الثالثة ، وهي المشاهد التي يقابلها أى زائر لموسكو في شوارعها وأسواقها وجامعاتها ونواديها وفنادقها ومتاحفها وكنائسها .. إلى آخره .
ولا أتجاوز إذا قلت إن أول انطباع يشعر به الزائر لموسكو هو أنه يلتقي بأمة عظيمة بالمعيار التاريخي للأمم العظيمة ، وهو قدرتها على الاحتمال .

فهذه أمة تحملت مسئولية تحقيق حلم إنساني ضخم ، وإن لم يحقق حلمها لسوء حظها مطالبه ! ثم أن هذه الأمة تعرف أنها كانت صانعة النصر الحقيقي في الصراع مع النازية ، وأنها دفعت في هذا النصر حياة ٢٠ مليوناً من شبابها . وأخيراً فإن هذه الأمة تعرف أنها بعد تحقيق النصر أفلت من يدها وعده . فالأمة لاتضحى في الحروب لكي تضع أكاليل الغار على رؤوس الزعماء ، وإنما تضحى الأمم رجاء في غد أفضل . وبالنسبة للأمة الروسية فإن هذا الغد الأفضل لم يحن بعد .

وفي حديث مع أحد الأساتذة السوفيت في حديقة أكاديمية الاستشراق الواقعة أمام قلعة الكرملين تماماً ، سمعت منه قوله :

« قالوا لنا أن الأمل كان سيئاً . وأن المستقبل يحمل في طياته شيئاً أحسن . لكنهم لم يقولوا لنا شيئاً عن اليوم .. ما هو وصفه ؟ : حسن أو سيء . كأن هذه اللحظة الحاضرة لاتعنيننا وكأنها ليست حياتنا التي نحياها الآن ! » .
نتيجة ذلك أن الزائر لموسكو يشعر أن الأمة العظيمة في حالة « انكسار نفسي » على مستوى الأفراد .

ثم أن هذا « الانكسار النفسي » على مستوى الأفراد يجد لنفسه متنفساً في عدة ظواهر ..

• ظاهرة الارتقاء الكامل في أحضان الدين على مستوى الرجل العادي . وقد ذهبت وحضرت - كمتفرج - قداس الأحد في كنيسة « زاجورسك » العظيمة . كان القداس طبقاً للمذهب الأرثوذكسي (أورتا - دو كسا : أى العقيدة

الصحيحة) يجرى بالطبع على خلاف القديس الكاثوليكي - دون آلات موسيقية . أى أن صوت المنشدين والمصلين أنفسهم هو الضراعة والدعاء ، وهو الصعود بالغناء إرتفاعاً والتزول به همسا ، وهو التقاء النغم وابتعاده - لكن الدموع كانت فى معظم العيون لا أدرى فرط تدين أو فرط حزن ! .

• ظاهرة العودة إلى نوع من الوطنية البالغة حد التعصب ، وهى وطنية تختلط فيها العقائد الدينية بالعقائد السياسية مع عبادة البطولة المحتجبة .

وعند مدخل « زاجورسك » كان المشهد رمزا معقدا . ساعة معطلة أمام الكنيسة ، وإذا لم تكن معطلة فهى متأخرة عن الساعة الحقيقية ثلاث ساعات ونصفا . وأمانها نصب لضحايا الحرب الوطنية العظمى (الحرب العالمية الثانية) ، والنصب داخل فى سور الكنيسة . وفوق الكل علم أحمر ذو مطرقة ومنجل يخفق مع الرياح .. الوطنية نائمة فى أحضان الدين ، وفوق الاثنين يرتفع العلم الشيوعى ! .

وفى موسكو كان هناك طاوور يمتد ميلين من المنتظرين لدخول ضريح « لينين » . وأمام ضريح « لينين » بالضبط يقع أكبر محلات موسكو ، وهو محل « جوم » ، والرفوف فيه خالية إلا من بعض زجاجات المشروبات الغازية والأطعمة المعلبة والأقمشة السميكة ومعظمها من أقمشة الستائر - وهى ظاهرة تعم روسيا كلها كأن كل نافذة أو باب فيها يتحرق شوقا إلى ستار ينزل عليه !

وفى الميدان الأحمر ما بين سور الكرملين ومحل « جوم » مواكب من المتزوجين حديثا جاءوا يباركون زفافهم بالوقوف تحية أمام شعلة الجندي المجهول فى حديقة « فلاديمير » ، ثم يبحثون عن مكان فى الطاوور الطويل الذى لا يمل انتظار دوره لدخول ضريح « لينين » والقاء نظرة على جسده المخنط فى صندوق زجاجى - قبل أن يبدأوا شهر العسل !

• ظاهرة الشك ، وهى موجودة أمام كل محل عام فى موسكو - مطعم أو فندق أو مسرح يقترب منه الزائر - داخلا أو خارجا - فيجده محاطا بجموع تتابع

المترددین علیه بنظرة فيها كثير من الاسترابة وأحيانا بعض الغضب ، وإلى جانب نظرات الريبة والغضب آخرون مستعدون لصفقات : « هل معك عملة ؟ » - « هل معك تذاكر مسرح ؟ » - « هل تريد أن تشتري ساعة ؟ » - « كافيار ؟ » - أى شيء ؟ ! .

فنادق الانفتاح - والدفع فيها بالدولار - محظور دخولها على المواطنين السوفيت من الأصل والأساس ، وهو شعور جارح من شأنه أن يجعل أى مواطن غريبا فى عاصمة وطنه .

وأسواق التعاونيات ، وهى أسواق المنتجين الفرديين الذين أتاح لهم « جورباتشوف » فرصة المبادرة الخاصة ، مزدحمة بالمشتريين ، ففيها وحدها شيء مما يمكن لأى مستهلك أن يشتريه خصوصا من الطعام . وقد دخلت أحداها وتجولت فيها ساعتين ، وهى سوق « كيفسكايا » . وكان الاحساس الذى بدألى مرسوما على كل الملامح والتقاطيع هو أن كل مشتري يشعر أن بائعه لص أو مستغل على الأقل ! وشيء من هذا الشعور صحيح ، فإن المنتجين القادمين بالشاحنات الكبيرة من الجمهوريات البعيدة مثل « جورجيا » (يحملون فيها خضرا وفاكهة وسجقا) يعودون بشاحناتهم وقد وضع كل واحد منهم فى جيبه ما بين خمسة وستة آلاف روبل ، فى حين أن أكبر موظف فى الدولة لا يزيد مرتبه فى الشهر على ثلاثمائة روبل - أى ثلاثين دولارا بالسعر الحقيقى للروبل . وإن كان الانصاف يقتضى الاشارة إلى أن الاحتياجات الرئيسية للمواطن رخيصة ، فهو يدفع إيجارا للمسكن - حجرة واحدة - ما لا يزيد على خمسة روبلات ! .

• ظاهرة الحساسية المفرطة ، تجاه الأجانب . وهم بالنسبة للمواطن السوفيتى العادى ثلاثة أنواع : سياح من الغرب جاءوا يرثون لحاله . وزوار من العالم الثالث جاءوا يأكلون على حسابه . ونوع آخر من الأجانب شكلهم مستغز بصرف النظر عن أوطانهم ، والشعور العام الذى يلاحقهم هو أنهم جاءوا ليخطفوا آخر كعكة فى يد اليتيم . وفى مسرح الباليه ، وكان يعيد تقديم بحيرة

البجع لـ « تشايكوفسكى » - رأيت سيدة أجنبية كريمة تتناول قطعة من الشيكولاته من علبة صغيرة في يدها ، وتلمح طفلا مع أمه يتابعها بنظراته فتقدم له قطعة من الشيكولاته ، وإذا بالأم تخطف من ابنا قطعة الشيكولاته وتعيدها إلى صاحبها وهي « تبرطم » بعبارات غاضبة كأنها وابنها تعرضا لاهانة لا تغتفر ! .

وعند مدخل أحد المتاحف رأيت سيدة روسية أخرى تقترب في غضب أشد من زائرة أجنبية علقت قرطا من الذهب في أذنيها لتقول لها : « وتعلقين الذهب في أذنك .. أجدر بك أن تضعيه تحت حذائك وتدوسى عليه ! » .

ولعل الحساسية لدى السوفيت تصل إلى ذروتها عندما يقفون في الطوابير . وهي عمل كل يوم لدرجة أدت إلى قول شائع بين الناس : « إذا رأيت طابورا قف في أوله ، ثم اسأل بعد ذلك ماذا يبغون ؟ ! »

وفي ليننجراد أشارت سيدة سوفيتية رقيقة تعرف الغرب بحكم عملها وتسافر بالضرورة مرات خارج وطنها - إلى طابور طويل واقف أمام أحد المحلات وسألتنى : « هل تعرف ماذا يفعلون في هذا الطابور ؟ ينتظرون شراء الفودكا . » ثم استطردت تقول : « هل هذا معقول ؟ أن يضطر رجل أو امرأة إلى الوقوف في الطابور ينتظر دوره لشراء فودكا . إن الشراب مسألة شخصية جدا ، وأن يضطر إنسان للتعرض للمهانة على هذا النحو - شيء لا يحتمل . » ثم استطردت تقول : « إننى في كل مرة أعود من الخارج أحبس نفسى في غرفى أسبوعا أو أكثر إذا استطعت حتى أهيب نفسى مرة أخرى للخروج ! » .

• ظاهرة الشكوى لكل سبب ، وأى سبب ، وأحيانا بلا سبب . ولكن كثيرين من الناس - خصوصا من الشباب - أسباب للشكوى : الأجور ، ونقص السلع ، وقيود السفر ، وانقطاع الاتصال مع العالم الخارجى ، والحدود على الطموح ، والمقارنة بالغرب ، وغيرها . وأما سوى الشباب فشكواهم الضياع في مجتمع تداعت فيه العقائد ، وتهاوت المثل ، وتخلت فيه الآلهة عن دورها . على أن الشكوى أحيانا بلا سبب وهي تصدر عن ناس عايشوا عصر الركود العظيم

وشاركوا فيه ثم إذا هم الآن فجأة في طلائع عصر « البيروسترويكا » . ولقد التقيت مع نموذج طوّلاء من نجوم « الأجهزة » . رجل كان يعمل من قبل مع « جروميكو » ، وإذا هو الآن يشكو مما كان يلاقيه . وقلت له : « ظننتك كنت قريبا منه ! » وكان رده بسرعة : « هذا الرجل لم يكن يعرف كيف يتسم ؟ حاولت مرة أن أقول له ذلك باخلاص وكان رده على قائلا بجد « إننى أستطيع بالقطع أن أبتسم ، ولكن ألت ترى أن ذلك سوف يبدو غير طبيعي ! » - واستطرد مساعد « جروميكو » السابق يقول : « كان جروميكو يقول إنه يؤمن بتبادل الآراء ، وكان مفهومه لتبادل الآراء بيننا وبينه - ونحن مساعدوه - « أننا ندخل إليه بأرائنا ونخرج من عنده برأيه ! » - وهكذا يتحقق التبادل ! » .

• ظاهرة الاستعداد المتزايد لتصديق غيبيات يصعب وجود أساس عقلى يؤيدها - أو يقين دينى يبشر بها - فالاهتمام شديد فى الاتحاد السوفيتى بقصة طبيب نفسى اسمه الدكتور « كاشبروفسكى » يملك قدرة تخدير مرضى العمليات الجراحية بمجرد نظرات عينيه - مطلة حتى من شاشات التليفزيون . وبجانب حكاية « كاشبروفسكى » فهناك حكاية فتاة آشورية اسمها « جونا » وهى الأخرى تملك « قدرة عجيبة » - كما يقال - على شفاء الأمراض بلمسة من أصابعها . بل ويدور الهمس أنها هى التى كانت تشرف على علاج « ليونيد بريجنيف » خلال السنوات الأخيرة من حياته . ويؤكد القائلون - وهم كثر - أن « جونا » الآشورية استطاعت بلمسات أصابعها أن تمد فى عمر « بريجنيف » خمس سنوات على الأقل !

وهذا كله بالطبع غير قصة تلاميذ المدرسة الثانوية رقم ٣٣ بمدينة « فورونيز » الذين رأوا رجالا من عوالم أخرى ينزلون من مركبة فضاء وكل منهم له ثلاث عيون فى رأسه - إلى آخره .. وهى قصة راجت بشدة واستطاعت أن تنتزع أعمدة كثيرة من صحافة الاتحاد السوفيتى ومن اهتمام ملايين الناس فيه . وتلك كلها أعراض حالة اجتماعية فقدت يقينها فى كل شىء ، وراحت

تلتسمه في أى شىء حتى ظلمات كهوف الخرافة والسحر والشعوذة .

• بجانب هذه الظاهرة مباشرة تبرز ظاهرة أخرى على نقيضها وهى ظاهرة « أسماك القرش » الاجتماعية ، وهى تتمثل في أعداد كبيرة من أصحاب الملايين الجدد في عوالم الظل والسوق السوداء . ولقد رأيت نماذج حية لهم في مطعم « شايبكا » الألماني في ليننجراد - ولم يكن واضحاً لى كيف دخلوا إليه والدفع فيه بالدولار - لكنهم كانوا هناك . مجموعة تحتسى الويسكى الاسكتلندى بشراهة ، وتدخن السجائر الأمريكية بلا انقطاع ، وتعلق السلاسل الذهبية مدلاة من الصدور ظاهرة من وسط الفراء الغالى ، والاحساس بالعنف والشر ظاهر من كل التصرفات والحركات ، وكل « قرش » منهم محاط بكوكبة من الفتيات تملأ الأصباغ وجوههن فوق أزياء مستوردة بالقطع من الغرب ، وتفوح منهن عطور تبوح بمصدرها الباريسى ، والتصرفات والحركات هى الأخرى نقيض لأى عقيدة وحتى لأى خرافة .

وسألت عامل المطعم « أى عينة من الناس هؤلاء ؟ » - وكان رده بأسى :
« هذه هى الذئاب الجديدة على السهول الثلجية لروسيا . ومنهم كثيرون ، ولكن تعال في المساء لتراهم ملء المكان وليس ملء مائتين أو ثلاث فقط ! » .

• واخبرنا ظاهرة الكفر بكل القيادات التى تعاقبت على القمة في الكرملين باستثناء واحد هو « لينين » .

سألت عشرات عن « ستالين » ، وكان الرد أنه « مجرم » ، وهذا هو الوصف الذى سمعته متكرراً فيما عدا رجلاً واحداً أشار بعضلات ذراعه ايماء إلى القوة وقال بالروسية : « ستالين خراشو » (أى « جيد ») - ثم أضاف بكلمة انجليزية واحدة قائلاً : « قوى » ! .

ولم يكن « خروشوف » أسعد حظاً ، فقد كان في رأى الكل « نيت خراشو » - ليس جيداً .

وأما «بريخيف» فقد كان كارثة. و«اندروبوف» مات بسرعة.
و«تشرينكو» مات أسرع ولعل ذلك كان أحسن!. وحين نجى إلى
«جورباتشوف» فإن الصمت يغلب، ثم يكون القول «سوف نتظر لثرى»!

وتطوع أستاذ جامعة في ليننجراد يروي لي نكتة أخرى تقول:
«إن القطار السوفيتي تعاقب عليه أكثر من سائق، وكل واحد منهم تصرف
بطريقة.

«ستالين» قتل كل الركاب، ولم يستبق معه غير راكب واحد هو «بريا» -
وزير داخلية الرهيب - ومشى بالقطار وركابه كلهم جثث!

و«خروشوف» جاء لقيادة القطار ولم يفعل أكثر من تحريك الجثث،
وجعل أصحابها يغنون معه ويرقصون والقطار يمشى بغير هدف ظاهر، والرقص
والغناء على أشدهما.

وأما «بريخيف» فقد أوقف القطار واقنع ركابه بأن يقلدوا بجناجرهم صوت
حركته يوهمون أنفسهم أنه يسير، وهو في الحقيقة معطل!
وأسأل «و» «جورباتشوف» ماذا فعل؟..»

ويكون الرد: «صوت محرك القاطرة مسموع.. وجرس القيام يرق..
والكل ينتظر القيام، وهذا لم يحدث حتى الآن. هناك مقدمات ونحن لانزال
عندها!»

وسألت نفس الأستاذ في جامعة ليننجراد: «و» «لينين»؟
وفاجأه السؤال فيما يبدو لأنه سكت. وتابعه الحاحي. وكان قوله بعد
تردد:

«لينين قضية أخرى. دوره يحتاج إلى التدقيق من جديد ولكن هذه مسألة
صعبة حتى الآن».

وسأله عما يعنيه بتحفظ حتى الآن ؟.

وكان احساسى أن ظاهرة الكفر - أو الشك - واصله إلى « لينين » فى يوم من الأيام ، وإن كان اعتقاد الغالبية فى قداسه - شبه الأسطورية - مازال يحمية حتى هذه اللحظة .. وأما غدا وبعد غد فليس هناك ضمان !

* * *

ولاسبوعين كاملين فى الاتحاد السوفيتى كانت تلك الظواهر حياة كل يوم .
وأحاول تذكير نفسى بالحقائق إلى جانب المظاهر :

- فهذا مجتمع واحدة من القوتين الأعظم .. وتلك حقيقة لا يملك أحد أن ينساها .
- ثم أن هذا مجتمع يحوى أكبر نسبة فى الدنيا كلها من المتعلمين والمثقفين العارفين بالتاريخ والآداب والعلوم والفنون .
- وهذا مجتمع له اسهام بارز فى حضارة الإنسان ، فهو المجتمع الذى خرج منه « بوشكين » و « دوستويفسكى » و « تولستوى » و « تورجنيف » و « جوركى » و « تشايكوفسكى » و « كورساكوف » و « باسترناك » .. ومئات غيرهم من أعلام حضارة البشر .
- ثم أن هذا مجتمع من تلك المجتمعات التى ملكت العصر فى مجالات الذرة والفضاء وغيرها .
- ثم أنه المجتمع الذى وقف - وذلك شىء لا يمكن انكاره - بفهم وحزم مع العالم الثالث فى أصعب مراحل تطوره .

هى إذن أمة عظيمة بأى معيار ، لكنها أفاقت من « غياب طويل » على أزمة مفاجئة . أفاقت على زلزال دهم الكل دون أن يشعروا بمقدماته . بعضهم كان قريبا عند تخوم أوروبا الغربية ، وبعضهم كان بعيدا فى أقاصى آسيا . بعضهم

كان في المزارع وبعضهم كان في المصانع وبعضهم كان في جهاز الدولة . بعضهم كان في الخلاء على الطرق والجسور ، وبعضهم كان في بيته وربما في الحمام . وضرب الزلزال ضربته وانهارت الجدران !

ومع « البيروسترويكا » و « الجلاسنوست » (إعادة البناء والكلام بصوت عال) زادت حدة المشاعر ، وزاد إلحاح الحاجات .

وسألت دبلوماسيا سوفيتيا بارزا . قلت له : « وماذا بعد ؟ » .
وكان رده :

« هي « البيروتسرويكا » و « الجلاسنوست » . من حق الناس أن يتكلموا . » .

وقلت :

وما آخرة الكلام ؟ وإذا زاد حد الكلام عما هو موجود من سلع وخدمات فهل تتوقع شيئا آخر غير الثورة ؟ » .

وكان رده :

« إننا في روسيا . وفي روسيا كل شيء ممكن . وفي روسيا كل شيء مستحيل ! » .

وأصغيت إليه وفي ذاكرتي قصيدة لشاعر روسيا العظيم « بوشكين » يقول في أحد أبياتها :

« نعم .. روسيا هي الشرق الأقرب إلى الغرب

نعم .. وروسيا هي الغرب الأقرب إلى الشرق .

وذلك لغزها الغامض ... غموض ليس فيه أسرار !! » .

.....

.....

وكانت أسئلتى مازالت معلقة . ثم ماذا ؟ وكيف ؟ وإلى أين ؟ ! .

شارع الديمقراطية فى العاصمة السوفيتية
لا يقدم مفتاحا أو بابا !

الخطوات العشر للاتحاد السوفيتى
نحو الوضع الراهن فيه

ما العمل ؟ هذا هو السؤال الذى واجهه
« لينين » ويواجهه اليوم
« جورباتشوف » بعد سبعين سنة !

كل غريب قادم إلى موسكو ، يحاول استطلاع أحوالها ، يسمع نصيحة واحدة هي « أن يذهب إلى شارع «أرباط» (اسمه من أصل عربي كما هو واضح) ليرى عمق التغييرات التي جرت في روسيا - فقد تحول هذا الشارع إلى شارع « للديمقراطية » ، وفيه يمكن رؤيتها حية متحركة متدفقة كالشلال . كان الشارع في الأصل بمبانيه الباقية على ألوانها من القرن الخامس عشر وما بعده من القرون - ملتحق للكتاب والفنانين والشعراء من كل مدرسة ومذهب واتجاه . واتسعت أرصفته لأطنان من الكتب ، وأكناص من اللوحات ، وخليط من أصوات الموسيقى . وكان يقال أن أعمدة النور الجميلة والمهيبة - من بقايا مجد عصر «كاترين العظيمة» - والتي تمتد صفيين متقابلين بطول الشارع العريض - هي في الواقع أرواح شعراء أضاعوا عمرهم يغنون تحت أضوائها للناس في الصيف ، ولأنفسهم في زمهرير الشتاء حتى تجمدوا هناك في مواقعهم وحولمهم هالات من النور .

واختلقت قصص شارع «أرباط» بحياة روسيا في القرون الأخيرة حتى أصبح معرضا حيا من معارض التاريخ : في هذا البيت كانت «كاترين العظيمة» تجيء تحت جناح الظلام للقاء عشيق لها من الفنانين . وفي هذا البيت جاء « نابليون بوناپرت » حينما وصلت جيوشه إلى الكرملين ودخلته طلائع فرسانه بالفعل وتناول أول عشاء له في عاصمة القياصرة . وفي هذا البيت جاء « لينين »

عدة مرات يلتقي بجماعات من المثقفين الثوريين يقنعهم بأن لحظة بناء مجتمع الحرية والمساواة والأخاء التي نادى بها الثورة الفرنسية قد وجدت فرصتها أخيرا في روسيا ، ولكل الشعب وليس للبرجوازية فقط . وهكذا وهكذا تتناثر الأساطير في شارع «أرباط» وحوله .

وعندما جاء « ستالين » إلى السلطة انطفأت الأنوار في شارع «أرباط» واختنقت أنفاس الكتب ، وبهت ألوان اللوحات ، ونحسج صوت الموسيقى ، وأصبح شارع «أرباط» شارع الهمس المرتعش الخائف من المطاردة والملاحقة - تمسك فيه بأى عابر سبيل وتبعث به إلى معسكرات الاعتقال والعمل ... أو إلى مجاهل النفي في سيبيريا .

ثم جاء « جورباتشوف » ومعه سياسة « البيروسترويكا » (إعادة البناء) و« الجلاسنوست » (الكلام بصوت عال) - وغاد النبض من جديد إلى شارع «أرباط» . ورجعت إليه الطيور المهاجرة سرىا بعد سرب ، كل يحمل أشجانه وأوهامه وأحزانه ، وبقايا خوف غلبه اليأس فأصبح نوعا من الشجاعة تصب حرارتها في ألفاظ كبيرة ، لكنها عاجزة عن الفعل .

وقرر «جورباتشوف» أن يجعله شارعا «لديمقراطية» . وصدر أمر بمنع مرور السيارات فيه حتى يتحول إلى حرم أمن للناس . يسرون فيه أو يتجمعون أو يتظاهرون ويقول كل منهم ما بدا له - لا رقيب ولا حسيب .

وبدورى سمعت نصيحة الذهاب إلى شارع «أرباط» ، لأرى التغيير الذى جرى في روسيا وأحس بدفته . ومثل كثيرين غيرى أخذت بالنصيحة وذهبت لقضاء ساعات ذات مساء في شارع «أرباط» وكان ما رأيت وسمعت مسليا - ولا أستعمل وصفا آخر . وربما كان أكثر مالفث نظرى أن السنة النقد بدأت تصل إلى فاتح «شارع الديمقراطية» شخصا ، وهو «ميخائيل جورباتشوف» - وإلى زوجته «رائيسا» أيضا - فقد وقفت دقائق أمام تجمع أحاط بشاعر يلقى قصيدة على طريقة قصة «بوشكين» الشعرية المشهورة «حكاية الملك

سلطان ، ، وكانت القصيدة تقول :
« على رائيسا » زوجة الحاكم ... أن تكون أكثر تواضعا .
فلماذا تغير في اليوم الواحد ثلاثة معاطف فراء
وتدس في حقيبتها الحلوى وتوزعها على الأطفال الجوعى
يقال في العهود الغابرة أن زوجة القيصر ايفان
كانت تلقى بالنقود من الشرفة
ولكن ذلك شيء تافه - بالمقارنة بما تصنعه رائيسا في أيامنا هذه .
فعندما سقط المطر وقف جنرال بالمظلة
فوق رأسها لمدة ساعة
رائيسا ليس في دماغها إلا الخرق والأحذية والأشرطة والقبعات
أما ما تحت القبعة فخواء ...
فإلى أى مدى سنصبر يا « ميشكا » (تصغير « ميخائيل ») .

* * *

كانت تجربة شارع « أرباط » مسلية - كما قلت وليس أكثر - لكنى لم أجده
كما أشار على كثيرون : مفتاحا لما يجرى في روسيا أو دليلا يرشد إليه .
بدا لى أن مايجرى في روسيا زلزال حقيقى أصاب هذا البلد الشاسع والمتنوع
والضخم كأنه قارة بأكملها ، وبالتالي فإن ما جرى ويجرى فيه لا يمكن النفاذ
إليه من شارع واحد تحتلط فيه الكلمات والأصوات والألوان ، وهى فى أحسن
أحوالها قد تعبر عن حقائق ولكنها لا تشي هذه الحقائق !
إن حقائق - أو قوانين - حدوث الزلزال لها - ولا بد أن تكون لها - أسباب
ودواع أعمق وأوسع وإذا اخترنا أن نأخذ التعريف العلمى للزلزال دليلا
ومرشدا - بدلا من كلمات وأصوات وألوان شارع « أرباط » - فربما وجدنا أنفسنا
أقرب كثيرا إلى ما نبحت عنه - من كل مداخل شارع « أرباط » وأرصفتة
ومبانيه وأزقته وأحواشه !

وهنا قد يكون مفيدا أن نستعيد مرة أخرى تعليل حدوث الزلازل طبقا لموسوعة العلوم الصادرة عن « ماجروهيل » ، وملخصه كما يلي :

« إن الزلازل اهتزازات عنيفة ترج منطقة من سطح الأرض بعنف مدمر ، وقد تصل قوة هذه الاهتزازات إلى حد إصابة سطح الأرض بالتشقق والانكسار ، وذلك يحدث نتيجة لتحرك واحتكاك كتل جيولوجية ضخمة في باطن الأرض ، أو نتيجة لنشاط بركاني تصدر عنه حرارة زائدة أو غازات أو اشعاعات تتسرب مندفعة إلى فجوات واسعة بين هذه الكتل ... وعندما يحىء الزلزال فإن هزة خفيفة تمهد له . وبعد أن يقع الزلزال الكبير فإن هزات لاحقة لا بد أن تعقبه . وبعضها يمكن أن يكون في قوة الزلزال الكبير وخطره » . وظنى أن ذلك بالضبط هو ما حدث في الاتحاد السوفيتى ، اقتصاديا واجتماعيا وفكريا ، وبالطبع سياسيا .

وإذا كان هذا الظن صحيحا ، أو على الأقل قريبا من الصحة ، فإن الخطوة الضرورية - بعده - لتقصى أسباب ما جرى ويجرى في الاتحاد السوفيتى تقتضى العودة إلى الوراء قليلا - أكثر مما تقتضى زيارة شارع « أرباط » الآن .

• العودة إلى الكتل - الإنسانية وليس الجيولوجية - المتحركة والمحتكة ببعضها .

• والعودة إلى النشاط البركاني في وجدان وضمير بلد بعينه - وليس في باطن الأرض .

• والعودة إلى المشاعر والأمانى والطموحات المحبوسة تبحث لنفسها عن مخرج - وليس للغازات أو الاشعاعات المكبوتة تضغط وتتسرب من أى فجوات تفتتح لها بين طبقات الصخور .

فذلك كله هو الذى يمهد للزلزال السياسى وللزلزال الطبيعى على السواء ! .

* * *

إن العودة إلى التاريخ - كالحفر في طبقات الأرض - دائما متعبة وأحيانا مملة ، فهي تبدو متصلة بالماضى أكثر من اتصالها بالمستقبل . وليس هذا في ظني دقيقا ، واعتقادي أن النظر إلى الوراء والنظر إلى أمام كلاهما ضروري للتقدم بمثل ما يفعل سائق السيارة : ينظر في المرآة المعلقة أمامه فوق عجلة القيادة لكي يرى ماوراءه ، ثم يعيد تركيز بصره على طريقه المفتوح إلى أمام ، وهكذا نظرة إلى الوراء ثم تركيز على المستقبل ، أو يصبح التقدم مغامرة محفوفة بالمخاطر .

وإذا كان ذلك التوصيف للحال مقبولا ، فإن نظرة إلى الوراء قد لا تكشف فقط عن تعليل صحيح أو قريب من الصحة لما جرى ويجرى في الاتحاد السوفيتي - وإنما أيضا لكثير من متغيرات العصر والعالم .

وهكذا نبدأ :

- ١ -

• لنقل - أولا - أن هذا القرن العشرين الذي نعيش الآن سنواته الأخيرة - بدأ منذ تسعين سنة تقريبا تتنازعه فكرتان رئيسيتان : فكرة تقول إن « المبادرة الفردية » هي الطريق الطبيعي للمستقبل . وفكرة ثانية تقول إن « التنظيم الاجتماعي » هو الطريق السليم لهذا المستقبل .

وكانت الرأسمالية - مجسدة في أمريكا - تترأى وكأنها شكل المستقبل على أساس فكرة « المبادرة الفردية » .

وعلى الناحية الثانية كانت فكرة « التنظيم الاجتماعي » لاتتجسد في دولة ، وإنما تتجسد في الفكر الشيوعي كما صاغه « ماركس » و « إنجلز » ، وفي أفكار الاشتراكية « الفابية » في إنجلترا ، وفي الحركات الإنسانية التي أيقظتها الثورة الفرنسية طوال القرن التاسع عشر ووصلت إلى مداخل القرن العشرين وقد

تحولت إلى تيار عالمي ضخم ينادى بالثورة ويتطلع إلى فردوس يتحقق في هذا العالم ، وليس فردوسا يتأجل إلى عالم آخر .

- ٢ -

• ولنقل -ثانيا- إنه حين وقعت الثورة في روسيا ١٩١٧ وانهار حكم القيصرية في أعقاب انهيار جيوشهم أمام الجيش الألماني ، ثم حين استولى البلاشفة بعد ذلك ، بقيادة « لينين » ، على السلطة باسم الكادحين والمظلومين والمعدمين - فإن كثيرين في العالم تصوروا أن فكرة « التنظيم الاجتماعي » تجسدت بالفعل في دولة ، بمثل ما تجسدت الرأسمالية من قبل في أمريكا .

وتحمس كثيرون في قارات الأرض ، وطاروا على أجنحة الأمل لدولة العدل الأولى في التاريخ الإنساني ، وفي غمرة الحماس فاتهم حقائق :

• فاتهم أن مأساة « الثورة » - أي ثورة - هي أنها في لحظة انتصارها تجرد نفسها في واقع الأمر ورثة وحيدة لنفس الأوضاع المتردية التي ساعدتها على النصر . وأكثر من ذلك فإنها بعد انتصارها تصبح مسؤولة عن هذه الأوضاع المتردية .

• ثم أن هذه الأسباب التي تؤدي إلى قيام الثورات ليس سهلا علاجها بنفس سرعة الأمل في تغييرها . والفارق في السرعة بين الاثنين هو الفارق بين سرعة المحراث يشق الأرض ، وبين انطلاق الصاروخ يشق الفضاء !

ولم يكن في يد البلاشفة القادمين بالثورة إلى موسكو من السجون المظلمة والمنافي الموحشة - ما يعالجون به الميراث الثقيل الذي انتقلت مسؤولياته إليهم - غير السلطة .

والواقع أن الذي يتابع تاريخ روسيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ما يلبث أن يكشف أن الحياة السياسية طوال هذه الحقب

الدامية كانت صراعا بين المثقفين والقياصرة . وحين جاءت الثورة بالسلطة لم تعثر
لنفسها على حل غير القضاء على الاثنين معا !

ولكن كلا من الفريقين - المثقفين والقياصرة - ترك لها بعد اختفائه أشباحا لم
تختف ، وإنما ظلت ماثلة هناك طول الوقت .

- فالمثقفون تركوا لها ظاهرة « الانشقاق » و « التمرد » إلى درجة الشهادة .
- والقياصرة تركوا لها ظاهرة « الامبراطورية » في عصور كانت فيها
الامبراطوريات تتهاوى !

والحاصل أن التركيب الامبراطوري لروسيا القيصرية كان أعقد وأصعب ما
ورثته الثورة البلشفية التي وجدت أمامها وطنا أشبه مايكون بلوحة من الموزاييك
- مائة قطعة منفصلة بالعدد - أما ولغات وطوائف وأديانا شتى ، من حدود
أوروبا إلى ثلوج سيبيريا ، ومن بحر البلطيق إلى بحر قزوين .

وكان الحل الذى وجده « لينين » هو أن تتحول ممتلكات أو أجزاء
الامبراطورية المتهالكة إلى جمهوريات شعبية في اتحاد يضمها . وبدا هذا الحل
« للامبراطورية » ممكنا من ظن « لينين » أن الصراع في العالم طبقى وليس وطنيا ،
وأن مجتمع المساواة عندما يتحقق كفيل بحل تناقض الهويات الوطنية والدينية
والعرقية ، إلى آخره . وفي ذلك الوقت كانت الرأسمالية العالمية المتطيرة من فكرة
« التنظيم الاجتماعى » تحاول التدخل عسكريا في روسيا - تساعدها في ذلك
عناصر من الروس المطالبين بعودة العرش القيصرى قبل أن تتمكن فكرة « التنظيم
الاجتماعى » من إقامة دولتها !

- ٣ -

- ولنقل - ثالثا - أنه عندما جاء « ستالين » إلى السلطة في أواخر
العشرينيات واجهته حقيقة بديهية ، وقد رتب عليها نتائج بالغة الخطر .

إن فكرة « المبادرة الفردية » هي بالفعل منطق الطبيعة البشرية التي تحقق ذاتها بالتملك أكثر مما تحققها بأى شيء آخر. وأما فكرة « التنظيم الاجتماعى » فإنها تحتاج إلى « الفرض بالقوة » لأنها مختلفة عن منطق الطبيعة البشرية رغم اتفاقها مع مطلب العدل .

وعندما يبدأ « الفرض بالقوة » ويكون موجها إلى مجتمع بأسره يرجى تغييره - إذن فإن هذا « الفرض بالقوة » يصبح اختصاصا للدولة .

وهكذا أصبح الفكر - الذى يدعو له حزب - سلطة دولة تفرض بالقوة على مجتمع - أن يتشكل بالكامل من جديد وفق تصوراتها ، وكانت هذه التصورات جاحمة ابتداء من إلغاء الملكية إلى إلغاء الدين ! .

وربما كان ما أغرى « ستالين » على الغلوفى طريق « الفرض بالقوة » أن تلك كانت فترة أزمة الرأسمالية الكبرى فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ، وحين كانت الرأسمالية فى أمريكا محاصرة ، وكانت جيوش العاطلين خصوصا من الجنود العائدين بعد الحرب العالمية (الأولى) إلى ظروف الكساد والبطالة فى ذلك الوقت - تعسكر فى شارع بنسلفانيا تحيط بالبيت الأبيض الأمريكى وترغم الرئيس الجالس فيه وقتها - وهو الرئيس « هوفر » - على استعمال القوة المسلحة فى فض المظاهرات والاعتصامات - حتى أن قائد الجيش الأمريكى فى تلك الظروف وهو الجنرال « ماك آرثر » راودته فكرة الاستيلاء على السلطة لإنقاذ الدولة من « كساد وعجز » المدنيين الحزبيين ، وهمس بفكرته هذه إلى رئيس أركان حربه وكان فى ذلك الوقت الكولونيل « دوايت ايزنهاور » (الذى أصبح رئيسا للولايات المتحدة فى أوائل الخمسينيات) .

وهكذا فإن « ستالين » سار فى سبيل « الفرض بالقوة » إلى نهاياته الدموية وكان بين أسبابه أن « الثورة » أحق أن تفرض - من « الثورة المضادة » - التى يراها أمام عينيه على الناحية الأخرى من الأطلنطى .

• ولنقل - رابعا - أن الرأسمالية بعد أزمته الكبرى طورت أحوالها واستطاعت أن تعطي نفسها فرصة جديدة تماما بقيادة «فرانكلين روزفلت» الذي اعتمد على أفكار كثيرين من المجتهدين ، وأولهم رجل مثل «ماينارد كينز» أستاذ الاقتصاد البريطاني الذي شغلته أزمة الرأسمالية وراح يبحث بـ «حرية» عن مخرج لها - كذلك كانت الرأسمالية الأوروبية قد ذهبت إلى حد تمهيد الطريق أمام «هتلر» ليوقف زحف الشيوعيين على «برلين» !

وفي هذا الوقت كان «ستالين» يواصل «الفرض بالقوة» ، حتى ضد رأى «لينين» .

كانت صيحة «لينين» الشهيرة في ظروف الثورة وفي أعقاب الحرب هي : «السلام للجنود ، والأرض للفلاحين ، والسلطة للسوفيات» (أى المجالس الشعبية المنتخبة) ، ومع ضرورات «الفرض بالقوة» فإن «ستالين» بدأ ينشئ جيشا قويا لأعداء الداخل وللنازية الهتلرية العسكرية - ثم استرد الأرض للملكية الدولة بعد أن رأى الفلاحين الذين تملكوها عاجزين عن إدارتها ، فقد تعودوا قرونا أن يكونوا عبيدا بالبيع والشراء مع الأرض دون تجربة في إدارتها - وكانت لـ «ستالين» ذرائعه ، فإن النظام الزراعى على عهد القيصرية لم يكن إقطاعا بالمعنى الذى عرفته أوروبا الغربية ، وإنما كان عبودية حقيقية تطلب من السيد أن يتحمل مسئولية طعامها وشرابها وملبسها ومأواها ، ولا تطلبه بعد ذلك بشيء . وبهذه المسئولية الكاملة للدولة فى الزراعة ، وقبلها فى الصناعة والتجارة والخدمات ، ثم بمطالب دخول الاتحاد السوفيتى إلى عصر الصناعات الثقيلة - فإن السلطة لم تعد للسوفيت وإنما أصبحت للحزب ، وذاب الحزب فى الدولة ، وعلى القمة رجل واحد يلى إرادته المطلقة على كل الناس وكل الأشياء ! - ولم يصبح «ستالين» بهذه السلطات كلها - قيصر أحمر جديدا فقط ... وإنما أصبح إله يملك مقادير الحياة والموت !

• ولنقل - خامسا - أن المأزق الأكبر الذى واجه « ستالين » كان هو عبء « الامبراطورية » التى تحولت إلى اتحاد جمهوريات . والحقيقة أن هذه الامبراطورية كانت نوعا فريدا من الامبراطوريات نشأ كله حول المركز الامبراطورى ولم يتعد عنه كما كان الحال فى الامبراطورية البريطانية أو الامبراطورية الفرنسية مثلا .

كانت الامبراطورية بالنسبة لهذه القوى العتيقة (بريطانيا وفرنسا وغيرهما) - مغنا مستباحا . مصدرا للخامات الطبيعية والعمالة الرخيصة ، وفى نفس الوقت سوقا للسلع المصنعة بأى أسعار يختارها السيد الامبراطورى .

ثم أن هذه الامبراطوريات التقليدية كانت تملك مرونة فى التصرف إزاء ممتلكاتها ، فإذا زادت تكاليف واحدة منها على مكاسبها كان فى الامكان التخلي عنها بمنحها حق تقرير المصير ، ولو إلى حد الاستقلال .

أما الامبراطورية الروسية فإن نشوءها واحاطتها كلها من حول مركز واحد أدى إلى اعتبارها جزءا من الوطن ذاته . أى أن استغلالها صعب ، والتخلي عنها مستحيل !

ويعتقد أن التناقض هو الطبقة وليس الوطنية أو التراث أو الدين - فإن الاتحاد السوفيتى وجد نفسه يعطى مستعمراته أكثر مما يأخذ منها ! وكان هذا مأزقا حقيقيا ! .

• ولنقل - سادسا - أن التناقض الرئيسى فى العالم فى الثلاثينيات كان لا يزال متأزما من حول نفس الفكرتين السابقتين : فكرة « المبادرة الفردية » وفكرة « التنظيم الاجتماعى » . ولكن المنافسة احتدمت فجأة على المستعمرات

ومغاممها بين جناحين داخل فكرة « المبادرة الفردية » . وهما ألمانيا النازية المطالبة بحدود « الرايخ » الألماني التاريخية وبمستعمراتها القديمة من ناحية ، وبين بريطانيا وفرنسا ، ثم الولايات المتحدة فيما بعد - من ناحية أخرى .

وكان « ستالين » يتابع تحركات ومناورات الجناحين المتنافسين في إطار فكرة « المبادرة الفردية » ، وكان مناه - كما تقول الأسطورة الهندية - أن يرى أسدين يأكلان بعضهما حتى الذبول - بشرط أن يظل هو بعيدا عن الحرب المحتملة بينهما ، وكان من هنا أنه وقع مع « هتلر » ميثاق عدم الاعتداء الشهير في أغسطس ١٩٣٩ . وبعده نشبت الحرب فعلا بين الأسدين قبل مضي شهر واحد ، أى في سبتمبر ١٩٣٩ .

وأدرك « هتلر » غلطته في منتصف الطريق وقبل أن يصل الأكل بين الأسدين إلى الذبول - وهكذا كان هجومه على روسيا إشارة إلى بقية معسكر « الرأسمالية » حتى يعرف هذا المعسكر إنه لم يتخل عن التناقض الرئيسي مع العدو « الشيوعي » المشترك ، وكان أمله أن تتوقف الحرب في الغرب وأن يتركه الآخرون « يفرض الزمان الألماني على المكان الروسي » .

ولكن « الآخرين » كانوا أذكى منه وقرروا أن « يتحالفوا مع الشيطان ضده » - على حد تعبير « تشرشل » الذي كان تقديره أن الحرب - خصوصا مع قرب اشتراك أمريكا فيها - قد تنتهى بالقضاء على المنافس الألماني في برلين ، وبالقضاء في نفس الوقت على العدو العقائدى في موسكو أو على الأقل استنزافه .

- ٧ -

• ولتقل - سابعا - أن المكان الروسي استطاع أن يبتلع الزمان الألماني ، وتحققت هزيمة « هتلر » ، وخرج « ستالين » من الحرب وسمعة الاتحاد السوفيتي

في السماء . كما أن التعبئة من أجل الحرب انتقلت إلى مابعدھا لإعادة بناء
الصناعات الثقيلة .

كانت ظروف الحرب قد أيقظت نوعا من « التوحد » في روسيا حتى أن
الوصف الرسمي لهذه الحرب أصبح هو « الحرب الوطنية الكبرى » .

وكان مناخ هذه « الحرب الوطنية الكبرى » قد انعكس على جيوش
الإنتاج . فإذا الاتحاد السوفيتي يحقق معدلات باهرة في النمو تزيد عن عشرة في
المائة سنويا .

كذلك فإن مناخ هذه الحرب كبح قليلا من مظاهر القمع . وتصور كثيرون
في الاتحاد السوفيتي أنهم بتضحيات الحرب لم يشتروا فقط سلامة حدودهم .
وإنما اشتروا أيضا امكانيات تحررهم من قهر الحزب والحكومة و « ستالين » .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها أدباء بارزون بعد فترة من الجفاف بينهم
« شولوخوف » و « أهرنبورج » و « باسترناك » وغيرهم . كذلك كانت تلك هي
الفترة التي استطاع فيها العلم السوفيتي أن يلحق بالولايات المتحدة الأمريكية إلى
أفاق عصر الذرة والفضاء .

لكن « الحزب والدولة » و « ستالين » عادا بالأمر سيرتها الأولى . خصوصا
وقد بدأت الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي . وكانت الرأسمالية في ذلك
الوقت قد تركزت في حصنها الرئيسي الذي أطلت منه على بدايات القرن . وهو
الولايات المتحدة الأمريكية .

- ٨ -

• ولنقل - ثامنا - أنه في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات - أي في
نهاية عصر الرئيس الأمريكي « دوايت ايزنهاور » ومطلع عصر الرئيس الأمريكي
« جون كينيدي » - استطاعت الرأسمالية أن تجند أكثر الحفول خصوبة وقدرة على

الخلق في الولايات المتحدة . كانت الرأسمالية قد اكتشفت بتجربة ما قبل الحرب العالمية الثانية أن المفكرين في كل مجالات العلوم والفنون والآداب هم عنصر القلق الرئيسي والمراجعة في مجتمعاتهم ، وأن اجتذابهم لصالح « مؤسسة الامتياز والنفوذ والسلطة » أولى من تركهم عنصرا للشك والتشكيك في هذه المجتمعات . وهكذا كان . ولم تعد « المؤسسة » الأمريكية هي مجرد محترفي السياسة الحزبية ، وإنما دعى إلى صفوفها مفكرون سياسيون تحولوا في واقع الأمر إلى مهندسي سياسات . رجال من طراز « دين آتشيون » و « ماك جورج باندي » و « روبرت ماكنارا » و « جون ماكلوى » و « كينيث جالبريث » و « جورج كينان » و « جورج بول » و « هنرى كيسنجر » و « زيجنيو برجيسكى » ، ومئات غيرهم .

وكان هؤلاء هم الذين رسموا خطة المواجهة الجديدة مع الاتحاد السوفيتي وتلخص في احتوائه وحصره في الشرق ثم ارغامه بعد ذلك على الدخول في سباق للسلاح النووي والتقليدى يفرض عليه تغيير أولوياته ! - فإذا كانت أولويته الأولى بعد الحرب هي إعادة التعمير والبناء وتطوير نفسه بما يتلاءم مع عصر الذرة والفضاء - فإنه من الضروري الآن إجباره على أن يتراجع بهذه الأولوية من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثانية لتجىء بعد سباق السلاح . وكان منطلق هؤلاء أن الرأسمالية بمواردها المالية الطائلة (صرفت الولايات المتحدة في سباق السلاح ٣٠١ تريليون دولار) - سوف تكون أقدر على احتمال أعباء سباق السلاح من الجانب الآخر بمحدودية موارده وبأثقال الامبراطورية - وكلها محيطة بالمركز وضمن مسئوليته الوطنية - وهذه كلها التزامات يستحيل التخلي عنها كما يستحيل احتمالها إلى زمن طويل .

وكان حسابهم النهائى - بعد هذا كله - أن سباق السلاح سوف يقطم ظهر الدولة الشيوعية ويرغمها على إعلان عجزها !

وفي نفس الوقت كان تقدير هؤلاء أن سباق السلاح في مجتمعات « المبادرة

الفردية « سوف يؤدي إلى استغلال كل الاكتشافات الجديدة من ضغوط الحرب وحمى سباق السلاح بواسطة الشركات الكبرى سواء فيها المنتجة للسلاح أو غيرها في كافة مجالات الإنتاج .

وصح تقديرهم .

وكان العكس هو الذي وقع في المجتمع المفقول على نفسه بتركيز السلطة في الشرق ... فلاكتشافات الجديدة بضغوط الحرب أو حمى سباق السلاح - بقيت محصورة في الجانب العسكري وحده ، ولم تنفذ منه إلى الجانب المدني . بدعوى الحرص على أسرار الدفاع إزاء أعداء محيطين بدولة « التنظيم الاجتماعي » من كل ناحية !

وحدثت - وكان لا بد أن تحدث - تجربة غريبة في النمو ، وهي النمو على طريقة الأعمدة .

عامود صناعات الفضاء مستقلا يعلو ويعلو كل يوم .

وعامود الصناعات النووية مستقلا يعلو ويعلو كل يوم .

ومشكلة النمو على طريقة الأعمدة لا تحتاج إلى طول شرح . وباختصار فإن الأعمدة لا قيمة لها غير أن تحمل بناء أوسع بكثير وأعرض منها . فإذا بقيت مجرد أعمدة أمكن لها أن تصل إلى السماء بدون بناء . وهو بالضبط ما حدث .

- ٩ -

• ولنقل - تاسعا - أن الرأسمالية تجاوزت مرحلة الصناعات الثقيلة - الثورة الصناعية الثانية - ودخلت - خصوصا بدفع سباق السلاح - إلى الثورة الصناعية الثالثة (الاليكترونيات) . في حين ظل الاتحاد السوفيتي في أواخر ثورة سابقة لا يستطيع الخروج منها .

- كان الخروج من الثورة الصناعية الثانية ودخول الثورة الصناعية الثالثة يقتضى التمرد على منطق النمو بطريقة الأعمدة - وكان هذا صعبا .
- وكان الخروج إلى الثورة الصناعية الثالثة يقتضى حرية تبادل وشيوع معارف التكنولوجيا الجديدة - وكان هذا أشد صعوبة .
- وكان الخروج إلى الثورة الصناعية الثالثة يقتضى إطلاق حرية الفكر والتجربة والخطأ - وكان ذلك مستحيلا .
- وضايف من خطورة هذا الوضع أن مجتمعات تركيز السلطة تعتبر أن المعلومات مصدر قوة لأصحابها ، وبالتالي فاحتكارها ضرورى - وأما مجتمعات « المبادرة الفردية » فقد كانت المعلومات فى رأيها مشاعا للتداول والانتشار . وكان هذا بالضبط هو الفارق بين توجه يستهدف « تعظيم السلطة » . وتوجه آخر يستهدف « تعظيم المصلحة » .

- ١٠ -

• ولنقل - عاشرا - أن الثورة الصناعية الثالثة - التى فاضت على الغرب - أحدثت انقلابا جديدا وهائلا فى وسائل الإنتاج ، وبالطبع فإن كل تغيير فى وسائل الإنتاج لابد أن يلحق به تغيير مماثل فى علاقات الإنتاج - أى توزيع عائلته .

وذلك حدث من قبل . فعندما وقعت الثورة الصناعية الأولى بظهور البخار - استطاع العمال أن يحصلوا لأنفسهم - بالتظاهر وبالاضراب وحتى بالعصيان - على نصيب أكبر من عائد الإنتاج .

وذلك حدث أيضا بعد الثورة الصناعية الثانية بظهور الكهرباء .

وبمجيء الثورة الصناعية الثالثة أصبح فائض الإنتاج هائلا - وكانت إمكانيات التمرد والرفض قادرة على فرض إعادة التوزيع كما تجلى - فى أمريكا

وأوروبا الغربية - طول الستينيات - وبذلك تمت بسلام عملية إعادة اقتسام عائد الإنتاج على نحو يكفل عدالة أكثر لكل أطرافه وأولهم العمال .

ثم لحقت بعملية إعادة توزيع فائض الإنتاج إضافة أخرى أبعد أثرا وهي أن الثورة الصناعية الثالثة - ثورة الاليكترونيات - مدت فعلها إلى مجال الاتصالات فإذا الدنيا كلها « قرية واحدة » . وأهم من ذلك إذا الدنيا كلها سوق واحدة تولد إمكانيات للغنى لم تعرفها البشرية من قبل ، وبوسائل لم يكن لأحد عهد بها ولا حتى في خياله . وكان الغنى في الماضي معلقا بتبادل البضائع ، وطرات مستجدات بدلت القواعد والقوانين السابقة .

وعلى سبيل المثال فإن الأموال المتحركة كل يوم في بورصات نيويورك وطوكيو وفرانكفورت ولندن وغيرها تصل كل يوم - كل يوم ! - إلى أربعمئة بليون دولار في حين أن تبادل البضائع لايزيد حجمه يوميا في العالم على أربعة بلايين دولار . أى أن حركة تنقل الأموال أسرع مائة مرة من حركة التبادل التجارى التقليدى .

ولقد أصبح المال نفسه سلعة - « أوراق تطارد أوراقا أخرى » - على حد تعبير « فولكر » رئيس بنك الاحتياطى الأمريكى السابق - وفي هذه المطاردة تتحقق فرص للثراء خرافية .

ومنذ قرن من الزمان قال « هاينى » شاعر الألمان العظيم : « لقد أصبح المال في هذا العصر إلها . وروتشيلد هو رسوله » .

وكانت تلك إشارة لما هو قادم في المستقبل وما هو متحقق بالفعل الآن . فقد أصبح طلب « الثراء » دينا جديدا . والبنوك والبورصات الكبرى معابده ومحافظوها ومدبروها كهاته ورهبانه . والصلاة والدعاء والترانيم لا تنقطع أصواتها . والأبواب كلها مفتوحة والفرص على الآخر .

كانت عملية إعادة توزيع فائض الإنتاج في ظل الثورة الصناعية الثالثة ، ثم كانت عملية إمكانيات الاستثمار والثراء - التى لحقتها نتيجة ثورة الاتصالات -

كلاهما تحقيقان اتساعا هائلا في « الطبقة الوسطى » وهى ركيزة التماسك والاتساق فى كل المجتمعات . والواقع أن الثورة الصناعية الثالثة - بكل ما اشتملت عليه - أنشأت سلما عريضا تحركت عليه عملية الصعود الاجتماعى من طبقة العمال إلى الطبقة الوسطى . وعلى نحو لم يسبق له مثيل فى التاريخ .

وكانت دولة « التنظيم الاجتماعى » تعتبر أن عمال الغرب رصيد ثورى احتياطى لها . وضاع منها هذا الرصيد .

كذلك كانت دولة « التنظيم الاجتماعى » تعتبر أن شعوب المستعمرات القديمة رصيد ثورى احتياطى لها ، وبدأ هذا الرصيد يتبدد بدوره ويضيع ، لأن الثورة الصناعية الثالثة لم تكن فى حاجة إلى أيد عاملة رخيصة ، وإنما كانت تحتاج إلى عمال على درجة عالية من المهارة . كذلك لم تعد هذه الثورة فى حاجة إلى المواد الخام بواسطة الاحتلال العسكرى . بل إن أصحاب المواد الخام هم الذين أصبح عليهم أن يذهبوا بها إلى السوق العالمية ويبحثوا عن مشتر لها بأى ثمن تفرضه اعتبارات العرض والطلب . وهذه لعبة ليست فى أيديهم مفاتيحها !

أكثر من ذلك فإن الثورة الصناعية الثالثة أدت إلى بروز ظاهرة جديدة فى العالم وهى ظاهرة الشركات الدولية أو العابرة للقارات - كما يقولون - وبذلك فإن مجتمع « المبادرة الفردية » الذى كان يتمركز فى القلعة الأمريكية غادرها إلى العالم الواسع وحيث الظروف أكثر ملاءمة له . ثم زاد على ذلك أن مراكز جديدة تمكنت - فى ظروف مختلفة - من أن تلحق بالثورة الصناعية الثالثة من بداياتها ، كاليابان وألمانيا الغربية ، وبعدهما فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وغيرها .

وكانت هذه المراكز كلها تملك قدرة هائلة على الجذب وعلى الاستيعاب حتى لموارد المستعمرات السابقة ، ويكفى أن فوائض البترول فى حقبة السبعينيات - وقد زادت عن ٢ تريليون دولار - ذهبت فى معظمها وقودا اضافيا يغذى حركة الثورة الصناعية الثالثة الزاحفة فى كل مكان ، دون أن يكون لها مقر فى دولة معينة بالذات .

وكان ذلك مخيفا ، وكان تأثيره فادحا على دولة « التنظيم الاجتماعي » التي لجأت إلى حالة « سلطة الدولة » ، ثم انتهت إلى حالة « دولة السلطة » - فقد تخلفت في كل شيء حتى في تحديد العدو الذي يواجهها . فلم يعد هذا العدو هو أمريكا ، ولا أمريكا واليابان ، ولا أمريكا واليابان وألمانيا الغربية أو غيرها - وإنما أصبح العدو نظاما عالميا جديدا بالكامل يفرض أحكامه وقواعده وشروطه ، ثم إنه عدو ليست له حدود ولا جيوش ولا عواصم !

* * *

□ كان « خروشوف » طليعة الزعماء السوفيت الذين لمحو الحقائق مبكرا في الستينيات وحاول أن يغير . ولكن العبء كان كبيرا . كما أن أولى مقتضياته كانت ضرورة تغيير النظام من أساسه . وكانت مشكلة « خروشوف » أنه حاول التغيير من القمة ، وجرب اقناع زملائه ، ولكن هؤلاء تكالبوا عليه خوفا من المغامرة ، وجرده من السلطة ، وضنوا عليه بعد موته بمقبرة عند سور الكرملين كما حدث لغيره .

□ وجاء ثلاثي « بريجنيف » و« كوسيجين » و« بادجورتي » في أعقاب سقوط « خروشوف » ، وكان الثلاثة من دارسي الهندسة ، وخطر لهم في البداية أن بعضا من إعادة التنظيم ضمن الإطار القديم كفيلا بتحقيق القفزة العالية - وكان ذلك ضربا من الوهم أفاق أصحابه منه وتراضوا بعده على أن الأفضل والأسلم هو ترك الأمور على حالها ومواصلة الحكم كما لو أن كل شيء 'مازال على حاله .

وكانت تلك فترة الركود العظيم ، وفرصة العمر الضائعة .

□ وكان « اندروبووف » - الذي جاء بعد موت « بريجنيف » - متنبها لما جرى ، ولكنه كان مريضا مرض الموت .

□ وكان « تشرنينكو » - الذي خلف « اندروبووف » - وقفة قصيرة مع الشلل المؤدى بدوره إلى الموت .

□ وانفتح الطريق أمام جيل جديد يتقدمه رجال من أمثال «جورباتشوف» و«يالتسين» و«ليجاتشيف».

وتقدموا إلى القمة في الكرملين وسط عالم غريب عليهم ومعاد.

وقربوا إلى جوارهم منسقين قدامى رأوا الحقيقة قبل أن يصبح الديك في الكرملين مؤذنا بطلوع الفجر. رجال من أمثال «سخاروف» و«مدفيف» و«تورشين».

وتفاوتت الاجتهادات بين رجال الجيل الجديد. فقد رأى «يالتسين» الاسراع بالتغيير، واعتبر مغامرا وخرج. ثم رأى «ليجاتشيف» ضرورة الحركة على مهل. واعتبر رجعيا وتوارى في الظل...

وبقى «جورباتشوف» على القمة وحده. وهي موحشة. باردة. وملفوفة بالسحاب والضباب من مشاكل عاتية يتحتم عليه أن يتناولها بعلاج، وليس هناك علاج غير التغيير من الأساس.

والاتحاد السوفيتي يرتج بالاهتزازات، والكتل الضخمة (قوميات وأديان وأعراق) تتحرك وتحتك ببعضها. والنشاط البركاني (ثقافات وتطلعات وحقوق) يرفع درجة الحرارة بشكل زائد. والغازات والاشعاعات تتسرب إلى الفجوات الواسعة (احتجاجا وسخطا إلى حد الغضب).

وكلها عوارض زلزال!

لكن أى زلزال في العالم - طبيعيا كان أو إنسانيا - ومهما بلغ عنفه وقوته - لا يستطيع أن يغير وجه الأرض كلها ويطمس حقائقها السابقة عليه مرة واحدة!

ومن هنا فإن هناك حقائق ضخمة وباقية تستحق أن توضع تحت النظر:

١ - لم تفلس فكرة «المبادرة الفردية» أو تتحرك كما كان الفكر الشيوعي يأمل
ويتنظر!

ومن ناحية أخرى فإن فكرة «التنظيم الاجتماعي» لم تفقد ضرورتها وموجباتها الإنسانية ، مع التسليم بأهمية الحافز الطبيعي !

والدليل الحى على أن فكرة «التنظيم الاجتماعي» لم تسقط هو أن هذه الفكرة تزداد حيوية في ازدهار شعبية حزب العمال البريطاني على حساب التمرعات الفردية الجارحة في سياسات «مرجريت ثاتشر» . ثم أن الحزب الاشتراكي في فرنسا يحكم تحت قيادة «فرانسوا ميتران» . وكذلك يحكم الحزب الاشتراكي لفترة ثالثة متعاقبة في أسبانيا بزعامة «فيليب جونزالس» . والحزب الشيوعي الإيطالي مازال أكثر الأحزاب في إيطاليا حيوية ونفوذاً ، وهو الحزب الثاني في البرلمان على أى حال . والحزب الشيوعي هو الثالث في فرنسا رغم جمود قيادته . وشمال أوروبا ، وهو أكثر بقاع الأرض تقدماً ورفاهية ، راض من زمن بحكومات اشتراكية . ثم أن العالم الثالث كله تقريباً - أو الأوطان المؤثرة فيه - تنزع على نحو أو آخر إلى الأخذ بنوع من «التنظيم الاجتماعي» كضرورة لا بديل لها في طلب النمو والاستقرار .

كل هذا إلى جانب حقائق لا يصح أن تنسى ، وهى أن فكرة «التنظيم الاجتماعي» مازالت تحكم في الاتحاد السوفيتى وفي الصين ، وإن كانت داخلية الآن في محاولات للملاءمة أوضاعها مع أوضاع عالم تهب عليه رياح التغيير عواصف وأعاصير ، ذلك أن «العقائد» لامتوت بالسكنة القلبية مرة واحدة وإنما تتواصل محاولاتها - ولو بالتنفس الصناعي أحياناً - في طلب البقاء !

كذلك تظل هناك نقطة لا ينبغي أن تضيع بضعف الذاكرة أو بالتجاهل ، وهى أن فكرة «المبادرة الفردية» لم تستطع تحقيق ماحقته إلا بعد أن استعارت كثيراً من المبادئ والتوجهات من فكرة «التنظيم الاجتماعي» وأولها بالطبع نظام الرفاه الاجتماعي (من حق التعليم إلى حق العلاج إلى

حق التأمين) - ثم أنها علاوة على ذلك أخذت من فكرة « التنظيم الاجتماعي » ضرورة تدخل الدولة ونظام القطاع الحكومي والعام . وعلى سبيل المثال فإن المعجزة اليابانية داخلية في تخطيط الدولة اليابانية وخاضعة لتوجيهها وإشرافها . ولعل كثيرين لا ينسون أن القطاع الحكومي والعام في أمريكا وما في حكمه مثل مؤسسات الطاقة النووية والسلاح والفضاء (وهذه كلها سلع لا يشتريها أحد غير الدولة مباشرة أو بالواسطة) - يبلغ حجم العاملين فيه ٥١٪ من قوة العمل الأمريكية !

٢ - إن الأزمة المستحكمة في الاتحاد السوفيتي - وفيما حوله من بلدان أوروبا الشرقية - جاءت في الواقع من نتائج الخلط بين « العقيدة » و « السلطة » فحين أصبحت العقيدة سلطة والسلطة عقيدة (لها قدسية التتريال !) وبدون إمكانية من أى نوع للحوار والمنافسة مع الآخرين ، وبما يعنيه ذلك من إمكانية تداول الحكم - كانت النتيجة هي ما رأيته ورآه غيري في الاتحاد السوفيتي - وما يراه العالم كله الآن في أوروبا الشرقية ، وأهمه ماجرى في بولندا - مع تحفظي على بعض الملابس هناك - ثم في المجر ، وأخيرا في ألمانيا الشرقية . والحاصل إنه إذا جاز للعقائد أن تكون مطلقة ، فإن السلطة يستحيل أن تكون كذلك وإلا جاءت القارعة !

٣ - إن التناقضات الاجتماعية - على اتساع العالم - مازالت قائمة لم تنته ولا انتهى التاريخ ، ولكن هذه التناقضات لم تعد محصورة - كما كان في الماضي - في إطار دول وسياسات . لم تعد أمريكا قلعة فكرة « المبادرة الفردية » وإنما شاعت هذه الفكرة وتوزعت على مراكز متعددة خارجها (ومن هنا ربما كانت استجابة « بوش » بعد تردد للاجتماع سريعا مع « جورباتشوف » قبل أن يصل تداعي وتفاعل الأحوال في الاتحاد السوفيتي إلى نهاياته على النحو الذي كان ينصح به أقصى اليمين في واشنطن) . كذلك لم يعد الاتحاد السوفيتي هو كعبة فكرة « التنظيم الاجتماعي » كما كان

الحال خلال عقود ، وإنما خرجت هذه الفكرة من سجن اختلاط السلطة بالعقيدة - إلى عالم أوسع وأرحب تبحث لنفسها عن إجابات جديدة في عالم أشد تعقيدا من أن تنحصر حركته بين مركزين أحدهما في واشنطن والثاني في موسكو- وبين فكرتين أولاهما من صياغات القرن الثامن عشر ، والأخرى من مطروقات القرن الذي تلاه - القرن التاسع عشر !

٤ - إن التناقضات الباقية من عصر سابق وكذلك التناقضات المستجدة من عصر جديد ليس محكوما عليها أن تمارس حركتها بنفس الوسائل التي عرفها وألفها الناس حتى الآن رغم مخاطرها : الحرب الساخنة أو الحرب الباردة ، أو الثورة الدموية أو الانقلاب العسكرى . والحقيقة أن المشهد الذى يجرى فى برلين الآن يقدم نموذجا مستجدا فى ممارسة التناقضات . فإن ألمانيا الغربية التى كانت تزعج ألمانيا الشرقية بمقولة أنها وطن مفتوح لكل ألماني - تجد نفسها الآن مفاجأة بمئات ألوف من جحافل الشرق تفتحت لهم الأبواب ، والجدران أيضا . وذلك عبء على كل نواحي الحياة لم تكن « بون » مستعدة له ، وعليها هى الآن أن تبني حوائط جديدة ... على الأقل حواجز ... ترقف أو تنظم تدفق التيار حتى يستعد من يعينهم الأمر للملاقة فيضانه ، أو هو الفرق !

* * *

وكان السؤال الذى ألح على « لينين » هو : « ما العمل ؟ » - وقد كتب تحت هذا العنوان كتابا بأكمله . وأظن أن نفس السؤال مازال يواجه « جورباتشوف » بعد سبعين سنة .

ما العمل ؟ - والمشكلة أن « جورباتشوف » لا يستطيع أن يكتب فيه كتابا . وإنما يلزمه شيء آخر ؟ !

تاريخ روسيا والنماذج الثلاثة المستحيلة
التي يقدمها لـ «جورباتشوف»

مستقبل الزعيم السوفيتي والخيارات
الثلاثة المطروحة أمامه

طوفان الثلوج الذائبة
وشكل العالم بعده !

(٤)

عندما وصل «ميخائيل جورباتشوف» إلى القمة في الكرملين ، وأطل لأول مرة على صورة الحقيقة كاملة ، وفزع مما رآه واستهول نتأجه الداهمة - كان طبيعياً أن يكون مصدر إلهامه التلقائي هو تاريخ روسيا . وذلك منطقي ، فكتاب التاريخ في أى بلد لابد أن يكون مرجعاً متاحاً باستمرار لكل جيل من أجيال هذا البلد لأن للتاريخ قوانين فاعلة باستمرار ، رغم تغير الحوادث باختلاف الظروف وتلاحق الأزمنة .

وفي الشهور الأولى من حكمه بدا أن «ميخائيل جورباتشوف» حائر بين نموذجين شهيرين من تاريخ روسيا :

أولهما : نموذج «ايفان الرهيب» . قيصر روسيا الخيف في القرن السادس عشر ، والذي بلغ من قسوته أنه قتل ابنه الأمير «سيرجى» بضربة من هراوة حديدية فوق رأسه ، ثم ظل بقية الليل جالساً بجوار جثته يبكي أناً ويضحك أناً آخر ويحتسى الخمر دون توقف . وربما من هنا أنه - في حين أن مؤرخى العالم يصفون «ايفان» بـ «الرهيب» ، فإن المؤرخين السوفيت يجتارون له وصفاً وسطاً بين «الرهيب» و «الخزين» .

وبمقتضى نموذج «ايفان الرهيب» - فإن «جورباتشوف» كان عليه أن يعيد مأساة «ستالين» بطريقة أكثر ضراوة وأقسى ظلماً ، وأن يقمع ويقهر ويرد رياح

التغيير على أعقابها ، ويمسك بالأمر الواقع ولو بسطوة النار والحديد
وبدا لـ «جورباتشوف» أن الحل بوحى نموذج «ايفان الرهيب» - معاد
لطبيعته وطبيعة الظروف وطبائع العالم والعصر - وعلى وجه اليقين فإنه لم يقترب
منه بالمحاولة ، ولعله لم يقترب منه بمجرد الفكر أو الظن ا .

وثانيهما نموذج «بطرس الأكبر» قيصر روسيا المستنير والذي جاء بعد
«ايفان الرهيب» بقرن كامل ، وإليه وحده يعزى الفضل في بناء روسيا الحديثة .
فقد ثار «بطرس» على المجتمع القبلي المتخلف الذي وجدته في وطنه حين اعتلى
العرش شاباً متفتحاً بالأمل . وسافر بنفسه إلى عواصم النهضة في أوروبا . وشاهد
ودرس ، وعاد محملاً بأجهزة وآلات مما استوقفه ، وراح بيديه يعمل وينظم
ويلهم ، وأحس أن «موسكو» شرقية أكثر مما هو لازم ، وقرر نقل العاصمة إلى
مكان آخر ، يطل على البحر الذي بدا له صلة مباشرة بعوالم النهضة ، في حين
أن البر عزلة وحصار . وهكذا ذهب إلى أقصى الشمال في روسيا واختار موقع قرية
للصيد ، وخط بعصاه خطأ وقال : « هنا » . وكان ذلك هو الموقع الذي نشأت
فوقه مدينة «بتروجراد» أو «بطرسبرج» - «مدينة بطرس» والتي تحولت فيما بعد
وإلى الآن إلى «ليننجراد» أو «مدينة لينين» .

وحق اليوم تقف مدينة «بتروجراد» أو «بطرسبرج» أو «ليننجراد»
- كشاهد على عبقرية «بطرس الأكبر» وتشوقه إلى التحديث والتجديد ،
وانفتاحه على تيارات الحضارة الانسانية المضيئة والباهرة .

والواقع أن «بطرس الأكبر» لا يزال بطلاً في الاتحاد السوفيتي حتى بعد
الثورة . وعندما يدخل الزائر إلى كنيسة «بيتر و بافلوفسكى» وهي الكنيسة التي
تضم رفات قياصرة روسيا في مدينة ليننجراد - فإنه يجد الزهور على قبر ذلك
القيصر المستنير تتجدد كل يوم ، وأما غيره من الملوك (والأمراء) وهم يرقدون في
إحدى وستين مقبرة رخامية مزينة بالذهب - فإن كل ما بقي لهم هو ساعة كبيرة
معلقة فوق رؤوسهم ، تعزف نشيد الثورة (الانترناسيونال) مرة كل ست

ساعات كأنها تطاردهم بالكيد حتى في سكون الموت وصمت الأبدية ! .
وعلى أى حال وبمقتضى نموذج «بطرس الأكبر» - فإن «جورباتشوف»
كان عليه أن يهرع إلى الآفاق المفتوحة للفكر والعلوم والتكنولوجيا ثم يضخ إلى
روسيا كل ما يمكن ضخه إليها ، وفي نفس الوقت يفتح الأبواب جميعها ويزيل
الأسوار والستائر حريرية كانت أو حديدية حتى تهب الرياح الجديدة وتكسح كل
قديم ، حتى روائح التكسد والركود والرطوبة - وهى مازالت تفوح في روسيا
حتى الآن

وبدا لـ «جورباتشوف» على أرجح الظنون أن نموذج «بطرس الأكبر» قفزة
إلى المجهول ، خصوصاً وأن العصور مختلفة وأن الذين يملكون زمام الفكر والعلوم
والتكنولوجيا ليست لديهم نية تسهيل انتقالها من الغرب إلى الشرق لأسباب
عديدة يرونها ! .

* * *

وبين نموذج «إيفان الرهيب» ونموذج «بطرس الأكبر» تعطل «ميخائيل
جورباتشوف» لبعض الوقت يوازن خياراته وبحسب خطواته .

وبدا لى في عواصم أوروبية غربية - ثم في موسكو نفسها بعد ذلك - أن
«جورباتشوف» شغل نفسه - والآخريين - في الوقت الضائع بنموذج ثالث من
تاريخ روسيا ، وهو نموذج «كاترين العظيمة» التى تولت العرش بعد «بطرس
الأكبر» بعدة حقب .

وكانت «كاترين العظيمة» موهوبة فيما نسميه الآن «فنون العلاقات
العامة» . وكانت «كاترين» قيصرة مقبلة على الحياة ، كثيرة العشاق كذلك
كانت مغرمة بفن المراسلات وهى أيامها بديل عن الصحافة والتليفزيون الآن .
وكان أشهر من راسلتهم فيلسوف فرنسا العظيم «فولتير» الذى دعتة إلى
«بطرسبرج» فاكتفى بارسال أحد تلاميذه بدلاً منه ولم تياس «كاترين» وإنما

وقفت أمام تمثال نصفي لـ «فولتير» وضعته في قصرها ، ثم قالت لتلميذه الذي جاء نيابة عنه :

- «هذا هو الرجل الذي أدين له بكل ما أعرف وبكل ما وصلت إليه» .

وبدوره رد «فولتير» على هذا الشناء العاطر بثناء مثله وصف فيه «كاترين العظيمة» بأنها «سميراميس الجليد الشمالى» - يشير بذلك إلى الملكة الآشورية الأسطورية «سميراميس» التي قيل أن اليمام كان يطعمها طفلة ثم تحولت هي نفسها في نهاية عمرها إلى «يمامة» تحلق باجنحتها جميلة وحررة في آفاق السماء ! .

وكان «فولتير» يدلل «كاترين العظيمة» بأن يسميها «كاتو» - على وزن «جاتو» - وهو الحلوى المعروفة . ولفظ «كاتو» قريب بالايقاع من لفظ «جوربى» ، وهو وصف التدليل الذى أطلقه ساسة الغرب وصحف الغرب وجواهر واسعة في الغرب استجابة لحملة علاقات عامة بارعة قام بها «جورباتشوف» .

* * *

كان نموذج «ايفان الرهيب» مستحيلاً . ولم يكن نموذج «بطرس الأكبر» ممكناً . ثم أن نموذج «كاترين العظيمة» كان - بحكم الظروف - مؤقتاً وغير قابل للاستمرار إلى الأبد . فالعالم كله ينتظر ، وأهم من العالم فإن شعب الاتحاد السوفيتى كان قبل الكل ينتظر ! .

والسؤال الذى واجه «لينين» من قبل وصاغه في عبارته الشهيرة : «ما العمل؟» - عاد الآن يلح على «جورباتشوف» ويفرض عليه ما أسماه «هنرى كيسنجر» : «ضرورة الاختيار» ؟

وهكذا ، راح «ميخائيل جورباتشوف» يتحرك بهدوء وحذر .

□ فى البداية : طرح ما أسماه هو برنامج «التسريع» - أى سرعة الانجاز وزيادة النشاط فى كل مناحي الانتاج والخدمات - باعتبار أن الاتحاد السوفيتى

يملك من الموارد والمصادر ما يكفيه ، وأنه إذا «أسرع» في السير و «أسرع أكثر» - استطاع في ظرف سنتين أو ثلاث على الأكثر أن يحل أزماته المستعصية .

وما لبث «جورباتشوف» أن أدرك بعد قليل أن الضغط على مفاتيح السرعة ليس كافيًا لتحقيقها ، لأن الأمة في حاجة إلى تغيير شامل وإلى وقود معنوي ومادى وإلى «تكنولوجيا» لا تتوافر في الاتحاد السوفيتي !

□ وفي الحركة التالية توجه «جورباتشوف» ببناء من نوع مختلف . كان يريد تحويل الوقود الضائع في الآلة العسكرية السوفيتية الهائلة إلى مجال آلة الإنتاج المدني ، خصوصًا في السلع الاستهلاكية . ودوت صيحته بأن سباق السلاح يعرض الدنيا إلى كوارث بغير حدود ، وأنه «عالم واحد أو لا عالم على الإطلاق» .

وعندما كنت في موسكو تحدثت مع أحد المساعدين المقربين من «جورباتشوف» ، وكان يشكو من أن الآخرين لم يقدرُوا إخلاص هذه الصيحة التي أطلقها «جوربي» - وكان ردى عليه :

- «لأن الآخرين سمعوها مرات من قبل . أنا شخصياً سمعتها من «آينشتين» عام ١٩٥٢ . ثم قرأتها بتعبير آخر في خطاب بعث به إليّ «برتراند راسل» سنة ١٩٦٤ - وهي إذن صيحة لا تحمل أى جديد ، ولم يكن في مقدورها أن تقنع أحدًا بجديد طراً في الاتحاد السوفيتي» .

ولم يبد على مساعد «جورباتشوف» أنه اقتنع بأن شعار «عالم واحد أو لا عالم على الإطلاق» هو صدى متأخر لأصوات مبكرة ! .

□ وفي الحركة الثالثة : حاول «جورباتشوف» أن يشد التفات الآخرين إلى نظرية مبتكرة تبشر بـ «توازن المصالح بدلاً من توازن القوى» - ولم يلبث كثيرون أن اكتشفوا أنه ليس هناك توازن للمصالح في عزلة عن توازن القوى . فما يحقق المصالح ويؤكددها ليس التطوع الخيري للأطراف ، وإنما إحساسهم أن

تلك المصالح وراءها من القوة ما يعزز مطالبها .

□ وفي الحركة الرابعة : راح «جورباتشوف» يتحدث عن «بيت أوروبا واحد» لابد من اقامته بالتعاون بين غرب أوروبا وشرقها ، بما في ذلك حرية انتقال التكنولوجيا ورؤوس الأموال - ومرة أخرى لم يجد الآخرون فيما يقول به «جورباتشوف» أى جديد - ذلك أن فكرة «البيت الأوروبي الواحد» ترجع أساساً إلى الجنرال «شارل ديغول» الذى كان يتحدث عن «أوروبا الواحدة من شواطئ الأطلنطى إلى جبال الأورال» . وعلى أى حال فقد تبين أن «رسوم البيت الأوروبي الواحد» ليست جاهزة لدى أحد . ثم أن هناك كثيرين فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية - اعتبروها محاولة للتفريق بين جانبي الأطلنطى ، وهى فى هذه الظروف نوع من الوقعة ... أو فخ لن يقع فيه أحد !.

كان الآخرون - على ما يظهر - مصممين على انتظار «جورباتشوف» حتى يعترف بالواقع السوفيتى عارياً كما ولدته أمه (ظروفه التاريخية والواقعية) !.

* * *

وفى تلك الفترة وبالتحديد يوم ٢٩ ابريل ١٩٨٦ - بعد سنتين على صعود «جورباتشوف» فوق القمة فى الكرملين - وقعت كارثة مفاعل «تشرنوبل» - وفيما يبدو فإن تأثيرها كان حاسماً فى تفكيره . بعد «تشرنوبل» أدرك «جورباتشوف» - كما ظهر من تصرفاته - أن عليه مواجهة الحقيقة رأساً برأس وبغير حاجة - ولا وقت - للالتفاف أو الدوران حولها .

وفى تلك اللحظة أعلن سياسة «البيروسترويكا» (إعادة البناء) ومعها سياسة «الجلاسنوست» (سياسة الكلام بصوت عال ، ومصارحة النفس والآخرين) . كانت سياسة «الجلاسنوست» سهلة ، ولو نسبياً . فهى كلام واعترافات وحقائق تقال دون حرج . ونقد ، ونقد ذاتى . وكشف أسرار .

وكانت العقدة المستعصية هي «البيروسترويكا» (إعادة البناء) . فهنا لم تكن الأمور خطابة وصحافة واذاعة وصوراً على التلفزيون .

هنا كانت العقبات طابوراً أطول من الطابور الواقف في صبر ينتظر أمام ضريح «لينين» ، أو أمام محل بيع الفودكا . وكانت أبرز العقبات على النحو التالي :

١ - تكوين الشعب السوفيتي ، وقد تأثر كثيراً بنظام العبودية (وهو أسوأ من الاقطاع في أوروبا الغربية) - وبمقتضاه فإن «أقنان الأرض» (أى عبيدها - كما تسميهم الأدبيات الماركسية في الترجمات العربية) - كانوا قد تركوا كل مصائرهم للأمير أو للسيد . يعطونه عملهم . ويعطيهم طعامهم . ومن الغريب أنه عندما مات «ستالين» بعد أربعين سنة تقريباً من الثورة ، كانت تجمعات الباكين الحزاني في جورجيا تصيح بعبرة : «مات الذي كان يطعمنا» ! .

كان السيد «الحزبي» - مازال هو الذي يطعم بدلاً من السيد «الأمير» ! . وزاد على ذلك أن صور بعض «السادة» من الحزبيين شوهتها الحقائق التي ظهرت بعد موتهم . «ستالين» مجرم . «خروشوف» مهرج . «بريخنيف» أفاك ! . ونتائج هذا كله أن الشعب السوفيتي حتى الآن مازال يتكلم على أساس «الجلاسنوست» . وأما «البيروسترويكا» فإنه وقف ينتظر ما يفعله بها «جورباتشوف» .

ويحكى الرئيس «ميخائيل جورباتشوف» لاصفيائه قصة أسطورة صينية قرأ عنها أو شاهدها مرة على المسرح . قصة قرية كان يروعها تنين مخيف يسكن أحد الكهوف القريبة منها . ثم تقدم شاب بطل من أبناء القرية ذات يوم فقتل التنين وطلب إلى أهل القرية أن يخرجوا من مخابئهم ، ولكنهم ترددوا ثم قالوا له : «إنك قتلت التنين ، ومعنى هذا أنك أقوى منه ، وإذن فحق علينا أن نخاف منك أكثر مما كنا نخاف من التنين» . وصاح الشاب في وجههم : «إن التنين يسكن في قلوبكم ... إن الخوف داخلكم ، وكان هناك دائماً ولم يكن في التنين» !! .

٢ - تكوين الحزب الشيوعي السوفيتي ، وهو تنظيم يمسك بمفاتيح الحياة في الاتحاد السوفيتي كله، وقد تحول إلى نقابة منتفعين اقتعت نفسها وفرضت على الباقين أن حزب الطبقة العاملة هو «مستودع الحكمة الجماعية للشعب» . وكان ذلك في واقع الأمر تغطية لسلطة - ولا امتيازات مع السلطة لا يريد الذين احتكروها طويلاً أن يتنازلوا عنها الآن أمام صرخات الذين يمارسون «الجلاسنوست» مها علت هذه الصرخات أو تجاوزت في الآفاق أصداؤها .

وقيادات الحزب ، وهذه مع الأسف نتيجة الخلط بين السلطة والعقيدة - أرادت أن تحتفظ بامتيازاتها نوعاً من الملكية تقريباً . ولما لم يكن في استطاعتها تعديل قوانين الملكية - فإنها اخترعت بديلاً لها أبدية البقاء في المناصب .

وترتب على ذلك أنه في حين أن سياسة «الجلاسنوست» محتملة من هؤلاء على مضض - فإن سياسة «البيروسترويكا» كان لا بد من تعطيلها وتعويقها .

وهكذا فإن المقاومة ضد «جورباتشوف» لم تعد تصطدم بسلبية الجماهير السوفيتية فحسب ، وإنما بمعارضة صريحة من عناصر مستحكمة داخل مناصب الحزب ... وبالطبع داخل مناصب الدولة .

ولقد سارع البعض خفياً بتغيير جلودهم وشاركوا في «الجلاسنوست» - ولكن قلة قليلة فقط ومحيطه بـ «جورباتشوف» شخصياً هي التي شمردت عن أكمامها وراحت تجرب «البيروسترويكا» .

٣ - ولكن «البيروسترويكا» لا تحتاج إلى إخلاص القلة فقط ، وإنما تحتاج أكثر إلى توفير استثمارات بلا حدود ، وإلى عملية نقل ونشر لتكنولوجيا الإنتاج الحديثة ، وهذه جميعاً ليست في الانتظار عند أول منحى على الطريق .

ذلك أن توفير الاستثمارات من الداخل يقتضى عمليات جراحية تقتطع من ميزانية القوات المسلحة أو من مخصصات الزراعة والطاقة . ثم أن توفير مثل هذه الاستثمارات من الخارج يشترط مقدماً ضمانات تبدو لأول وهلة متعارضة العقائد .

وأما نقل ونشر التكنولوجيا فحكاية أكثر تعقيدا لأن الغرب - وهو مالك مفاتيحها - مازال يضع القيود على كل شيء ابتداء من أنواع معقدة من آلات التصوير إلى طرز مركبة من العقول الالكترونية .

وفي وقت من الأوقات جرب الاتحاد السوفيتي « سياسة » سرقة بعض أسرار التكنولوجيا . وفي سنوات مبكرة من الثمانينات كانت تلك هي المهمة الأولى لجهاز أمن الدولة والحزب ، وهو الـ « كى . جى . بي » - لكن السرقة يصعب أن تكون سياسة - ! - خصوصا لدولة عظمى ، وإنما يتحتم على الاتحاد السوفيتي أن يدخل مجالات التبادل الحر والخلاق في العلوم الحديثة .

٤ - والمشكلة بعد ذلك أن « شرعية » جورباتشوف من أساسها هي « شرعية لحظة تاريخية » . فهي ليست شرعية طبقة ، وليست شرعية توافق وطني ، وليست شرعية انجاز تاريخي محدد ، وإنما هي شرعية أمل .

والمأزق أن « شرعية الأمل » فوق أرتهاها بلحظة ، ترتبط أيضا بتحقيق هذا الأمل أو بخطوات محققة على طريقه .

إن سياسة « الجلاسنوست » ايقظت آمالا نائمة وحقائق ظلت مخدرة لزمن طويل . وهي ليست آمالا وحقائق اقتصادية واجتماعية فحسب - وإنما هي آمال وحقائق تصل إلى تطلعات قومية ووطنية ودينية وطاقفية في امبراطورية تتكون من مائة عنصر مختلف حشرت كلها - على اختلاف ما بينها - في اطار واحد امبراطوري . ثم عقائدي . ثم سلطة دولة . وقد تهاوى الاطار على المستويات الثلاثة بواقع المشاكل أولا ، ثم بطارئ « الجلاسنوست » ثانيا !

يضاف إلى ذلك أن « جورباتشوف » رجل يتصرف بمنطق واتزان ، بينما الروسى العادى يريد من حاكمه أن يكون نصف متوحش ونصف إله - وتلك بين ضمانات استمرار شرعيته !

* * *

والسؤال الذى يواجه أى زائر باحث عن الحقيقة فى الاتحاد السوفيتى ، وهو سؤال مروع وإن بدا بسيطا ، هو :

- « ثم ماذا بعد؟ » .

وفى الإجابة على هذا السؤال ، خصوصا فى الدوائر الدبلوماسية الأجنبية فى موسكو ، تبرز ثلاثة « أشكال للمستقبل » - أو « سيناريوهات » كما يقال .

السيناريو الأول : أن ينجح « جورباتشوف » . فإذا استطاع أن يحتفظ بموقعه على القمة فى الكرملين ، وتقدم الغرب للتعاون معه باخلاص وثقة فى صدق نواياه - فإن الأزمة يمكن اجتيازها فى فترة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة .

وهناك كثيرون يتشككون فى امكانيات النجاح حتى بعد مثل هذه الفترة الطويلة . وقد لقيت فى فندق « سافوى » وفدا من رجال الأعمال اليابانيين ، وكان بينهم واحد عرفته من قبل فى طوكيو . وجلست معهم ، وفوجئت برئيس وقد هم يقول لى صراحة :

- « لقد كنا نظن أن الاتحاد السوفيتى متخلف عن اليابان عشرين سنة ، ولكننا عندما جئنا ورأينا على الطبيعة ادركنا أنه متخلف إلى الأبد » !

وربما كان الحكم قاسيا ومطلقا على علاته - لكنه كفيل بأن يعطى صورة لرأى هؤلاء الذين ينتظر منهم أن يتعاونوا مع الاتحاد السوفيتى الآن وغدا ! والمأزق الذى يواجه « جورباتشوف » يتلخص فى أنه يحاول « إعادة البناء » من جديد بواسطة ماتبقى من أطلال النظام القديم - فعدا الفكر ليست هناك مواد جديدة . ولا موارد . ولا بشر من خارج الحدود !

يضاف إلى هذه العناصر عنصر آخر هو أن سياسة « الجلاسنوڤست » (الكلام بصوت عال) تضرب فى النظام كله بصرف النظر عن أية تقسيمات بين الفترات والعصور ، وهذا يؤدى إلى تآكل ونحر قوائم الشرعية تساعد عليه مشاكل الساعة واللحظة .

وكان هذا العنصر بالذات موضع نقاش بين «جورباتشوف» وعدد من كبار مستشاريه كان رأى بعضهم أن تبدأ عملية إعادة البناء قبل أن تفتح أبواب المصارحة ، بحيث تجيء المصارحة وفي السوق سلع وخدمات . أما إذا جاءت المصارحة وليس في السوق سلع أو خدمات ، فإن موجة المد العاقي لها سوف تكتسح الحاضر والمستقبل أيضا دون أن تجد ما يوقفها عند حدود البارحة .

وكان من رأى بعض مستشارى «جورباتشوف» أن التجربة الصينية أكثر حكمة ، فهناك رأى الزعيم الصينى «دينج» أن يبدأ بفتح أبواب الحرية الاقتصادية ثم يجيء الدور بعدها على الحرية السياسية .

وسمعت فى موسكو تفاصيل المناقشات التى دارت فى الكرملين حول الخيارين ، وقال لى أحد أعضاء اللجنة المركزية :

- « فى الصين اعطوا حرية اقتصادية أكثر خمس مرات مما اعطينا نحن هنا ، ونحن هنا اعطينا حرية سياسية أكثر خمس مرات مما اعطوه فى الصين ، والنتيجة أن الأحوال عندنا سائلة . والأحوال عندهم أكثر تماسكا . »

وكان رأى «جورباتشوف» أن النتائج تستوى فى الحالتين : فالحرية الاقتصادية لا بد أن تواكبها حريات ديمقراطية أوسع . والحرية السياسية لا بد أن تتوافر لها سلع وخدمات أكثر . وكان ظنه أن الحرية السياسية متاحة على الفور ومن الأنسب فتح الأبواب لها بغير انتظار حتى وإن زادت احتمالات التعرض ! (الصورة مختلفة بعض الشيء فى المجر وألمانيا الشرقية وحتى بولندا . فهناك درجة من النمو الاقتصادى تستدعى بشدة أن تلحقها درجة من التطور السياسى خاصة فى مجالات حرية التعبير والتجمع والانتقال ... وربما من هنا أن حركة تدفق التيار أسرع) .

والسيناريو الثانى : ألا ينجح «جورباتشوف» بمعنى أن يزاح من السلطة ويستبدل بغيره من اقطاب الكرملين . وسوف تكون هذه عقدة مستعصية لأن

أحدا لا يستطيع ببساطة أن يعيد الغطاء إلى الإبناء الذى يغلى . وبالتالي فإن أى خلف لـ « جورباتشوف » محكوم عليه بأن يواصل نفس سياسته حتى فى غيابة . وإذن فهى السياسة قبل الرجل الذى أصبح اسمه علما عليها .

والأ تنجح هذه السياسة ، فتلك هى القارة ذاتها . وأول ما يترتب عليها هو انقسام الاتحاد السوفيتى إلى دول أو دويلات على أسس قومية وعرقية ودينية . ثم أن حروبا أهلية ستقع لا محالة ، بل إن هناك مقدمات لها بدأت فعلا وحتى فى ظل وحدة الدولة السوفيتية . ونموذج لها ما يحدث بين « أرمينيا » و « أذربيجان » ، وهو خليط من صراع وطنى ودينى تتكرر أمثاله فى الموزاييك الامبراطورى الذى ورثته الثورة الشيوعية .

والغريب أن الاتجاه الوطنى المتعصب يظهر الآن أكثر ما يظهر فى جمهورية روسيا ذاتها ، فقد زاد فجأة دعاة القومية الروسية - الذين استنفرتهم دعاوى القوميات الأخرى - وظهر بينهم من « يرون » أن روسيا نفسها وسكانها حوالى ١٢٠ مليون نسمة ، أى نصف الامبراطورية - هى أمة واحدة متجانسة وقوية . وهى أوروبية . وتستطيع أن تجد نفسها ومكانها ودورها بدون الحاجة إلى كل هذا الخليط من القوميات والطوائف والأديان .

ومعنى ذلك وغيره أن خريطة أوروبا كلها - شرقا ووسطا أيضا - معرضة لإعادة رسمها من جديد بكل ما يترتب على ذلك من أهوال تنصب لها وحرقا فوق توازن القارة من جبال الأورال إلى شواطئ الاطلنطى - على حد تعبير « ديجول » !

يبقى السيناريو الثالث : وهو الشبح المجهول الذى يتمثل فى احتمال تدخل القوات المسلحة السوفيتية للحفاظ على تماسك الدولة السوفيتية ، وتلك مهمة أى جيش فى ظروف أزمت الأوطان ، وحتى الامبراطوريات ! .

والقوات المسلحة فى روسيا - هذه اللحظة - فى حالة معنوية قلقة ، وهنا خطرها .

وأَسباب القلق كثيرة تبدأ من أن شابا ألمانيا مراهقا (« ماثيوس راست » يوم ٩ مايو ١٩٨٧) استطاع أن ينفذ من كل الدفاعات الجوية السوفيتية ويخترق الاتحاد السوفيتي من حدود السويد إلى موسكو ، وينزل هناك دون أن يتعرض له أحد - وهي قصة مشهورة أدت إلى عزل قائد الدفاع الجوي السوفيتي من منصبه .

وتنتهى بأن القوات المسلحة السوفيتية - بحالة قدرها ! - عجزت عن تحقيق انتصار في أفغانستان ، حتى وإن كان قرار التدخل الأصلي في أفغانستان جرى اتخاذه ارتجاليا وعشوائيا !

وبرغم هذه الحالة القلقة فإن القوات المسلحة للاتحاد السوفيتي تعتقد أنها ادت للدولة مجموعة إنجازات ضخمة وحقيقية :

١ - هي التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية واعطت للاتحاد السوفيتي مكان ومكانة إحدى القوتين الأعظم .

٢ - وهي التي دخلت مجالات الفضاء والطاقة النووية ، وبذلك فتحت هذا العصر للاتحاد السوفيتي .

٣ - وهذا الموقع - موقع المساواة في القوة مع الطرف الآخر - هو الذي جعل الوفاق أمرا ممكنا .

٤ - وأخيرا فهي الآن تساعد قدر ما تستطيع في الصناعات المدنية ، فقد حولت الكثير من مصانعها بحيث يلبي حاجة الناس إلى سلع استهلاكية .

ورد الآخرين على ذلك بالطبع سهل ، وهو أن القوات المسلحة وهي تفعل ذلك كله لم تدبر له من عندها مايلزمه ، وإنما اقتطعته اقتطعا من دخل الأمة .

وتعاقب على قيادة القوات المسلحة ثلاثة في السنوات الأخيرة : المارشال « أجااركوف » ، ثم أبعاد إلى الظل ، وتلاه المارشال « اخراميف » ، وبدوره هو الآخر خطأ إلى الظل . والآن على رأس القوات المسلحة السوفيتية جنرال

وليس ماريشال ، وهو من سلاح «الامداد والتموين» وليس من أسلحة القتال ، وتلك مظاهر أخرى تشير إلى حالة القلق !
والأكثر إثارة للقلق أن الشعب السوفيتي يسمع هذا كله ويواصل أحاديث «الجلاسنوست» مطعمة بالسخرية :

• يروى الناس كلهم « قصة » رجل ذهب يسأل عن اختصاصي يعالجه .
وطلب اختصاصي أذن وعين . وقيل له أن هذا الاختصاصي غير موجود ،
فهناك اختصاصي أنف وأذن وحنجرة ، وهناك اختصاصي عين ، وكلاهما
فرع من الطب مستقل ، واصر الرجل على ما يريد ، وسأله : « لماذا ؟ » -
وقال : « لأن مرضي أنني اسمع شيئا وأرى شيئا غيره ! »

• و« قصة » أخرى ، هي أن « جورباتشوف » التقى بزائر أجنبي . وقال الزائر
الأجنبي للزعيم السوفيتي أنه لا يعرف غير كلمة واحدة من اللغة الروسية وهي
كلمة « فودكا » .

وسأله « جورباتشوف » : « ألم تسمع بكلمة بيروسترويكا » ؟ .

ورد الزائر الأجنبي قائلا : « الحقيقة - سيدى الرئيس - أنني لست

خبيرا باصناف المشروبات الروسية ، ولا أعرف منها إلا الفودكا ! »

ولهذه القصص وغيرها دلالات خطيرة ، أهمها أن هناك مقدمات لأزمة ثقة
بين الشعب السوفيتي وقيادته الجديدة ، فالقصص التي تروى في موسكو في
معظمها لها معان واضحة لا يخطئها الفهم . وبين معانيها أن الناس يراودهم شك
أن الجديد في حياتهم كله « كلام » - أو أن الجديد في حياتهم تسمعه الأذن على
نحو ، وتراه العين على نحو مغاير - أو أن هذا الجديد مشروب مسكر يجيء بالنشوة
دقائق ثم يتلوها بالصداع ساعات !

وفي التعليق على مجمل هذه الأحوال قال لى دبلوماسى غربى رفيع المستوى
تحدثت معه طويلا في موسكو - تعبيرا لعله من ادق ما سمعت في موسكو من

أوصاف للمزاج الفكري العام - قال :

- « إن الاتحاد السوفيتي يواجه الآن حالة « لبنتنة » (من لبنان) ، وحالة « اللبنتنة » هذه ظاهرة في الفكر ولم تنتقل منه إلى الواقع . وإذا حدث هذا الانتقال فإن عواقبه ستكون أكثر مما يستطيع العالم تحمله » .

* * *

. ويتبقى في الحديث عن « جورباتشوف » سؤال لعله يطرح نفسه حتى قبل أن يطرحه أحد ، وهو أنه « إذا كان ذلك هو مجمل الأحوال فما الذي يعتمد عليه « جورباتشوف » والقاعدة التي يقف عليها ، والقوى التي تسانده ؟ » .

وأظن أن أى إجابة متأنية عليه سوف تجد نوعين من الإجابات :

□ النوع الأول داخل - أو سوفيتي - وهو صبر الشعب الروسي ورصيده منه كبير ، وآمال الشعب السوفيتي مازالت حية مثل نار تحت الرماد - وإلى جانب ذلك فإن أى فرد أو مؤسسة تريد تحدى « جورباتشوف » سوف تجد نفسها وارثة مضطرة لسياساته ونتائجها المحتملة .. فهذه السياسات لم يعد ممكنا الرجوع فيها ، ولا إعادة الأمور بشأنها إلى حيث كانت . ومعنى ذلك أن أى خلف لـ « جورباتشوف » سوف يجد نفسه أسيراً لسياساته ، وهذا يرد كثيرين في الكرملين حتى الآن عن انقلابات القصور والقلاع ! - ولـ « جورباتشوف » في ذلك وصف تصويرى دقيق ، فهو يقول : « إن معجون الأسنان يخرج من الأنبوب بالضغط عليه . ولكن أى ضغط لا يستطيع إعادة المعجون الذى خرج إلى الأنبوب مرة أخرى » ! .

وهو تجديد « تكنولوجى ! » فى خصيلة القيادات السوفيتية يختلف عما كنا نسمعه من أجيال أسلافهم ، وكانت فى معظمها متأثرة بتجربة الحياة فى المصانع والمزارع أو خنادق الحرب العالمية الثانية !

هذه العوامل وغيرها في الداخلى تعطى لـ « جورباتشوف » وقتنا وسعة مجال للحركة .

□ والنوع الآخر من الإجابات خارجى - أى دولى - وهذا هو الميدان الأكبر الذى يمارس فيه « جورباتشوف » حركته التى تخطف الأبصار :

١- إن « جوربى » قدم نفسه للعالم شخصية جذابة . منفتحة على العوالم والعصور . وتملك شجاعة الخيال والفكر والعمل معا ، وقد بلغت شعبيته في أوروبا الغربية وأمريكا حداً أثار القلق لدى كثيرين في الغرب وصلوا إلى حد اتهامه بأنه يقوم بعملية تنويم مغناطيسى للجماهير « الديمقراطيات الباحثة عن حلول مريحة لمشاكل العالم المعقدة » !

٢- إن « جورباتشوف » يعرف أكثر مما يعرفه أى زعيم سوفيتى غيره عن حقيقة الأحوال في الولايات المتحدة وفي الغرب عموماً . وهو يعرف أن الولايات المتحدة التى ارهقت الاتحاد السوفيتى في سباق السلاح تحولت للسبب ذاته إلى أكبر دولة مدينة في العالم . ثم أنها أصبحت في « منافسة » من نوع ما مع أقرب الحلفاء إليها وأولهم « اليابان » !

وقد سمعت أنه أثناء زيارة قام بها « جورباتشوف » لبرلين الشرقية - كان عنيفاً مع بعض الزعماء الألمان الذين كانوا يحاولون إنكار الحقائق المستجدة . وكان « جورباتشوف » عنيفاً « لأن إنكار شمس النهار في عز الظهر حتى إذا غطتها الغيوم ، هو تخل عن العقل وعن الحس السليم » . وفي نوبة العنف التى اعترت « جورباتشوف » راح يقول :

« إننى أخرجت « مصارينى » أمام ريجان . ولم يكن في حاجة إلى أن يخرج « مصارينه » أمامى لأنى كنت أراها . نحن في دنيا لم تعد فيها أسرار . ولم يعد في مقدور أحد أن يعتمد على « خدع » من أى نوع . لأن كل الحقائق أصبحت عارية أمام كل الناس » .

٣- هناك شيء آخر يعتمد عليه « جورباتشوف » ولعله في مجاله نجح بأكثر مما

نجح في أى مجال آخر. ذلك أن « جورباتشوف » استوحى - فيما بدا لى - قصة طوفان « نوح » .

لقد استطاع سياساته أن يجعل ثلوج القطب الشمالى تذوب . وتحولت كتل الجليد الباقية من أيام الحرب الباردة إلى طوفان كأنه طوفان « نوح » ...

ولقد ترك السيول تهدر وموجاتها العالية تسابق بعضها إلى أوروبا الوسطى في اتجاه أوروبا الغربية . وفي هذه الاندفاعات الهائلة للسيول الهادرة وموجاتها العالية فإن السدود انهارت ، وبينها « حائط برلين » (الذى يرى البعض سقوطه سنة ١٩٨٩ مائلا لانهار أسوار سجن « الباستيل » أمام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩) وقد طرح انهياره على الفور احتمال استعادة وحدة ألمانيا وهو الشبح الذى يؤرق الغرب لأن احتمال مجرد الاحتمال - خطريته موازين الأمن الأوروبية . فإذا أضيف إلى ذلك أن كتلا ضخمة في وسط أوروبا ، كبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ، قد أصبحت احجارا ضخمة سائبة تتدحرج على سفوح القمة الروسية مهددة بالانقراض على الغرب - إذن فإن الشكل العام لأوروبا يصبح داعيا إلى فوضى شديدة .

٤ - إن هذه الفوضى الداهية تتجاوز في أبعادها حدود الاتحاد السوفيتى أو أوروبا الشرقية أو الغربية ، وإنما هى واصلة وراء ذلك إلى ما يصعب حسابه : ومثلا فإن احتمال استعادة الوحدة الألمانية - إذا تحقق - يعنى قيام « دولة عظمى » ثالثة إلى جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وهى دولة ذرية بالمعرفة ولا تحتاج إلى أكثر من لمسة زر واحدة من صانع القرار فيها لتتحول المعرفة النووية إلى تطبيق نووى .

ومثلا فإن التركيب الاقتصادى (وضمنه صناعة السلاح) وكذلك التركيب الاجتماعى والنفسى في كل مجتمعات الغرب على جانبي الاطلنطى

قائم على أساس المنافسة والتعبئة وضد الشيوعية - فإذا خرج هذا العدو بما في ذلك الاستعداد المادى والنفسى ضده من الحساب - فكيف تقوم معادلات التوازن الجديدة ؟

ومثلا فإن خطوط التقسيم السياسى والعقائدى فى مرحلة سابقة استوجبت قيام حلفين كبيرين لكل منهما جيش من أقوى وأحدث الجيوش فى التاريخ ، وهما حلف الاطلنطى من ناحية ، وحلف وارسو من ناحية أخرى . والأوضاع المستجدة فى العالم تأخذ من هذين الحلفين والجيوش مبرر وجودها لتتحول إلى أحلاف ورق وإلى جيوش عاطلين !

ومثلا فإن أوروبا الغربية كانت تنظم نفسها فى مواجهة أمريكا واليابان داخل سوق مشتركة تصل إلى هدفها الكبير سنة ١٩٩٢ . وإذا اتحدت ألمانيا فكيف يتم تنظيم هذه السوق ؟ - وإذا طلبت دول أوروبا الشرقية المتدحرجة إلى الغرب - وبعضها مثل بولندا سوف يطلبه - الانضمام إلى السوق الأوروبية ، فما هو الوضع مع العلم بأن اطرافا فى السوق الأوروبية ترى أن بولندا والمجر ، ولو بالانتساب ، أولى من تركيا بدخول السوق لأن « السوق الأوروبية » ليس لها أن تقبل فى عضويتها طرفا مسلما مهما كانت الظروف ؟

ومثلا فإنه نتيجة لهذه الفوضى لم يعد أحد يعرف أين هو تحديدنا ؟ ومع من ؟ أو ضد من ؟ وأين القريب وأين البعيد ؟ وما هو المحتمل وما هو المستحيل ؟ .

(وكنت ناقش هذه الصورة فى أحد حوارات موسكو الممتدة ، وقلت لمحدثى إن هذه الحالة تذكرنى على نحو أو آخر بتجربة قائد الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض أيام معركة السويس ١٩٥٦ - كانت الولايات المتحدة قد وقفت فى تلك الظروف - ولأسبابها الخاصة - موقفا مختلفا عن موقف حلفائها التقليديين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل . وبعث وزير البحرية الأمريكى فى واشنطن ببرقية إلى قائد اسطوله فى البحر الأبيض

يسأله عن حالة استعداده - ورد الأميرال قائد الأسطول ببرقية سارت مثلا في التاريخ قال فيها : «الأسطول على أقصى درجات الاستعداد ، ولكن بحق السماء من هو العدو؟» .

* * *

والحاصل أن « جورباتشوف » أعاد أوروبا مرة أخرى إلى مكانها الحساس والخطر على السلام العالمى . فنذ الثورة الفرنسية - قبل قرنين - وأوروبا في الواقع معمل ومختبر التاريخ الإنسانى . ومنذ ذلك الوقت ، ومن « نابليون » إلى « هتلر » والعالم يدفع ثمن ما يحدث في أوروبا . ولحقتين أو ثلاث من الخمسينيات والستينيات وبعض السبعينيات استعار الشرق - الأقصى والأوسط - خشبة المسرح وراح يشغل العالم . وفي مطلع التسعينيات يعود المسرح إلى أوروبا مرة أخرى . والفضل لطوفان « جورباتشوف » !

ومن الذى يستطيع أن يضمن الشكل الذى يمكن أن تصبح عليه تضاريس القارة وتحومها عندما تتوقف السيول والأمواج وتنزل مياه الطوفان ويظهر ماتحتها؟!!

وأكاد أقطع بأن عشاء السبت الماضى فى الاليزيه (١٨ نوفمبر ١٩٨٩) ، والذى دعا إليه الرئيس « ميتران » بعض زعماء أوروبا الغربية على عجل - كان بالضبط محاولة مشتركة تتحسب للطوفان الهادر نحوها وتستعد لمخاطره إذا انفض .

.....
.....

وربما تذكرنا أن سفينة « نوح » الأصلية - فيما تقول الروايات - لا يزال حطامها موجودا على سفوح جبال « آارات » فى جنوب الاتحاد السوفيتى ، فهناك تركها الطوفان بعد أن غيض الماء !!

مستقبل العلاقات بين العرب والاتحاد السوفيتي

حوارات باللغة الصراحة عن الماضي
والحاضر والمستقبل في هذه العلاقات

موسكو تلحق بمجرى التاريخ العالمي
العام .. والفرق بين « لينين » و « كريستوفر كولومبس » !

أولويات السياسة الخارجية السوفيتية
في نسب بالأرقام

أتمنى ألا أكون متشائما - ولا متفائلا - إذا أنا قلت إن قضايا الشرق الأوسط ، ومشكلات العالم الثالث جميعا ، لن يكون لها دور أو مكان في اللقاء المنتظر بعد أيام على مياه البحر الأبيض الزرقاء وفوق أمواجه المتعشة ببرودة الخريف في هذا الوقت من السنة - بين « جورج بوش » و « ميخائيل جورباتشوف » . والواضح أن هذا الاجتماع بين الاثنين ليس له جدول أعمال محدد ، وإنما هو مخصص - حسب تعبير الرئيس الأمريكي - لهدف واحد « هو أن نعرف بعضنا أكثر على المستوى الإنساني قبل أن نلتقي على أمور بعينها عندما يزورنا « جورباتشوف » في الصيف القادم » - ويلحق بذلك إنه عندما يجين الأوان لبحث « أمور بعينها » - فإن الشرق الأوسط والعالم الثالث عموما ليسا على رأس قائمة « الأمور » التي تستولى على اهتمامها المشترك في هذه الأوقات الهامة التي يجرى فيها العمل على إعادة صياغة علاقات القمة الدولية في ظروف متغيرة . ومهما كان ذلك مؤلما فقد تذكر مثلا شائعا روسيا يقول « إن الحقيقة المؤلمة أفضل ألف مرة من الأكذوبة المريحة » ! - وهو مثل شائع سمعته متكررا على السنة مختلفة طوال أسبوعين في الاتحاد السوفيتي !

* * *

وفي حديث مع أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، وهو في نفس الوقت - وبموقعه الرسمي الكبير - أحد أبرز المشاركين في صنع

وتوجيه السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط - سألته سؤالاً صريحاً ومباشراً
- « أين مكان الشرق الأوسط وقضاياها من أولوياتكم الآن ؟ »
وسكت لبعض الوقت ، ثم نزل بيده وكفه مفتوحة مفرودة إلى قرب الأرض
وقال : « قليل ... » .

ثم أضاف :

- « ولكن هذا ليس معناه أننا فقدنا الاهتمام أو تخطينا عن دورنا ... » .
ولم آخذ تلك إجابة كافية ، وواصلت الضغط :

- « ماهو معنى قليل ... أحياناً ومن قوة عظمى فإن هذا القليل يكفي للتأثير
في الحوادث .. » ؟

ولم يقل شيئاً . وواصلت الالحاح وأنا عادة لا أحبه - لكن الباب كان موارباً
والفرصة قائمة :

- « لو أنني طلبت منك تجاوزاً أو مجازاً أن نحاول معا تحديد نسب لأولويات
اهتماماتكم في السياسة الخارجية - فكيف في رأيك تكون النسب ؟ »

وتردد . ولم أسكت . وبعد فترة صمت قال :

- « إن المسائل لا تقاس على هذا النحو . ذلك صعب . صعب جداً . ومع
ذلك فإنني لو حاولت مجازة طلبك لقلت لك أن نسب أولويات سياستنا
الخارجية (خلاف أوروبا الشرقية بطبيعة الحال) في هذه الساعة هي تقريبا على
النحو التالي :

٨٥٪ من اهتمامنا - هذه الساعة - لعلاقتنا مع الولايات المتحدة .

١٠٪ لعلاقتنا مع أوروبا واليابان .

٥٪ لبقية علاقتنا مع الآخرين غير الذين ذكرتهم لك ! » .

ومع أن ذلك لم يكن بعيداً جداً عما توصلت إليه في موسكو فإنني لم أتمالك

نفسى من الدهشة وهذه النسب تقرع سمعى ولو همسا - وقلت :

- « معنى ذلك أن الشرق الأوسط وكل ما فيه لا يحصل من اهتمامكم على أكثر من واحد في المائة فقط . إذا كانت بقية العالم غير أمريكا وأوروبا الغربية واليابان لا تترك للعالم الثالث كله غير ٥٪ ، فلا أظنى مخطئا إذا قدرت أن نصيب الشرق الأوسط لا يتجاوز واحدا في المائة » .

وعقب هو قائلا :

- « إننا نرجوكم تقدير ظروفنا الآن . ثم أن عليك أن تلاحظ إننى استعملت وصف « في هذه الساعة » ، وما هو صحيح في هذه الساعة قد لا يكون صحيحا بالضرورة في ساعة لاحقة ! » .

وقلت له :

- « إننى بالطبع أقدر - كما إننى بالقطع أحاول أن أفهم ، وإلا لما جئت إلى هنا في هذه الأيام ! » (وفيما بعد تساءلت بينى وبين نفسى عما إذا كانت « هذه النسب » في « هذه الساعة » متأثرة باللمسات النهائية لاجتماع « بوش » و « جورباتشوف » ، وكان النبأ على وشك أن يعلن !) .

* * *

ومع ذلك وفي مناقشة أخرى مع صديق عربى خبير بالسياسة السوفيتية ومراقب لها منذ ربع قرن ، وكنت قد حدثته عن لقاءى مع المسئول السوفيتى الكبير - وجدته يقول لى :

- « إن النسب التى حددها لك صديقك صحيحة - لكنى أجد نفسى ميالا إلى أن أضيف لها نقاطا أخرى لصالح اهتمام الاتحاد السوفيتى بقضايا الشرق الأوسط ، هى فى ظنى أكثر من واحد فى المائة . أكثر بالتأكيد .
لابد لك أن تتذكر أن هناك باين لقضايا الشرق الأوسط .

هناك « الباب العربى » لهذه القضايا ، وبالفعل فإن نسبة اهتمام الاتحاد

السوفيتي به لاتزيد على واحد في المائة - لكن هناك أيضا « الباب الأمريكي » وهذا له حسابه ، حتى إذا كان هذا الحساب موجودا في خانة أخرى وهي خانة العلاقات الأمريكية السوفيتية التي قالوا لك أنها تمثل ٨٥٪ من اهتمامات الاتحاد السوفيتي الراهنة في السياسة الخارجية .

ومضى الصديق الخبير يقول :

- « الباب الأمريكي للشرق الأوسط مهم ، فالاتحاد السوفيتي يعرف أن الولايات المتحدة معنية إلى حد ما بقضايا الشرق الأوسط ، وهي حتى الآن لاتزال تلعب دورا مؤثرا فيها ، والاتحاد السوفيتي يعرف ذلك ولا يرى بأسا في هذه الظروف من أن يكون « باب الشرق الأوسط وقضاياها » مدخلا ضمن مداخله إلى ساحة العلاقات الأمريكية السوفيتية . وذلك هو حافزه إلى سياسته الجديدة مع إسرائيل ، وهي سياسة لاشك أكثر ودا مما كانت . كما أن ذلك دافعه إلى تسهيل الهجرة إلى إسرائيل أمام من يرغب من اليهود السوفيت مع إنه يعرف أنهم يجبرون قسرا على الذهاب إلى هناك ، فيلهم الطبيعي للهجرة هو إلى أمريكا وليس إلى إسرائيل ، والاتحاد السوفيتي لايغنيه إلى أين يذهب المهاجرون في النهاية ، المهم « تحسين » صورته في الولايات المتحدة . كذلك فإن « الباب الأمريكي » هو السبب في المرونة السوفيتية البادية إزاء ما يسمى بـ « جهود التسوية » في الشرق الأوسط .

هكذا تختلف الحسبة . بمعنى إنه إذا كان الشرق الأوسط في حد ذاته يحصل على واحد في المائة من الاهتمام السوفيتي - فإن « الباب الأمريكي » يضيف إلى هذه النقطة زيادات قد تغير مجمل الحساب ! .

ويواصل الصديق الخبير قوله :

- « لاحظ أن السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط - وغيره - مازالت في حالة سيولة شديدة ، فالتغيرات الوافدة كل يوم تؤدي إلى ارتباك وخطأ شديدين ، ثم إن سياسة أى قوة عظمى لا تتحول مرة واحدة ، وإنما هي دائما

خطوط متشابكة. حتى تصل الحركة إلى خط واحد ثابت ومؤكده .

وفي هذه الساعة فإن السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط تتبدى في خمسة خطوط أستطيع أن ألمحها أمامي :

١ - خط مازال يرى أن السياسة القديمة للاتحاد السوفيتي في المنطقة يجب أن تظل فاعلة كما كانت ولا تتغير ، وإنه حتى من « الباب الأمريكي » - فإن هذه السياسة تعطى الاتحاد السوفيتي ورقة في يده يواجه بها الولايات المتحدة بدلا من أن تصبح المنطقة كلها ورقة في يد أمريكا . ولتتفق مجازا على أن هذا الخط يمثل « بروتينيتس » وهو نائب رئيس قسم العلاقات الدولية في اللجنة المركزية .

٢ - خط يرى نفس الرأي ، وإن كان أكثر مرونة في قبول المتغيرات الوافدة على المنطقة وعلى العالم . ولتتفق مجازا على أن هذا الخط يمثل « بولياكوف » وكيل وزارة الخارجية السوفيتية (وكان من قبل سفيرها في القاهرة) .

٣ - وخط بعد ذلك يرى أن الارتباط بسياسات قديمة أو التعهد بسياسات جديدة قيد لالزوم له على السياسة السوفيتية . ويرى هذا الخط أن « الأسلوب العملي » أفضل في هذه الظروف وأفيد ، وبالتالي فإن الاتحاد السوفيتي عليه أن يستجيب لتطورات الأمور كما تجرى دون أن يربط نفسه بشيء ثابت . لأن الأوضاع كلها ليست ثابتة . ولتتفق مجازا على أن هذا الخط يمثل « تاراسوف » المساعد الخاص لوزير الخارجية السوفيتية ...

٤ - ثم يحىء خط آخر ينادى بأن كل ما كان في الماضي خطأ وأن إسرائيل هي القوة الوحيدة المؤثرة في سياسات الشرق الأوسط . فإذا أراد الاتحاد السوفيتي أن يلعب دورا فعليه أن يرفع كل تحفظاته السابقة في التعامل مع إسرائيل . ولنقل مجازا أن هذا الخط يمثل « بوفين » - وهو نائب رئيس تحرير « اذفستيا » وعضو بارز في النخبة السياسية الجديدة .

٥- وأخيرا يحىء الخط الرسمى المعتمد ولو مؤقتا ، وهو خط « ادوارد شيفرنادزه » وزير الخارجية السوفيتية ، وفي رأيه أن كل الخطوط السابقة يجب المزج بينها فى خط واحد متوازن - على الأقل « حتى يتعود اصدقاؤنا القدامى فى الشرق الأوسط على موقف مختلف حيال قضاياهم .. موقف مختلف بمعنى أن يعرفوا أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا علينا باستمرار كاحتياطى جاهز يستعملونه عند اللزوم - أو يتصوروا أننا تركناهم بالكامل للطرف الآخر ينفرد بهم ويفرض عليهم كيفما يشاء » !

* * *

طوال أسبوعين فى الاتحاد السوفيتى كنت أحاول أن أتصور ما حدث وأستوعبه - وربما لا أتجاوز إذا قلت إننى طوال هذين الأسبوعين رأيت كثيرين من « الملتزمين عقائديا » غير قادرين لا على التصور ولا على الاستيعاب ..

طوال الأيام التى قضيتها فى موسكو التقيت بكثيرين من العالم الثالث ، وبعضهم من رجالات التنظيمات الثورية والعقائدية التى ملأت الساحة فى الخمسينيات والستينيات وبعض السبعينيات من هذا القرن ، وكان بينهم من لعبوا أدوارا مؤثرة فى ظروف سبقت .

لكن الظروف الآن اختلفت ... والآن كان حديثهم تعبيرا عن الشعور بـ « صدمة » .

فكلهم حتى هذه اللحظة عاجز عن إدراك أن الاتحاد السوفيتى لم يعد « هناك » - حيث كان .

وبعد هذا الشعور بال « صدمة » - فإن ردود فعلهم جاءت متضاربة :

- كان بينهم من وقف بأدب « ليقول للرفاق السوفيت » أنهم « يظلمون أنفسهم وينكرون انجازاتهم بكل هذا الاندفاع إلى سياسة « الجلاسنوست » (الحديث بصوت عال ومصارحة النفس والآخرين) - وأن كل تلك

الأقوال والتقارير عن « الفشل » ليس لها مقتضى من الحقيقة والواقع .

ووجدتني أقول له بعد أن انتهى من كلامه :

- « أنه نسي مثلاً عربياً شائعاً يقول إن « أهل مكة أدرى بشعابها » -
ثم أنه نسي حكمة من عصر التنوير مؤداها أن « كل التجارب الإنسانية
قابلة لثلاث حالات : الصواب - والخطأ - والتجاوز » (أى أن بعض
التجارب قد تكون عظيمة في زمانها ، لكن هذا الزمان قادر بمستجداته
على تجاوز ما كان !) .

• وكان بينهم من وقف يقول بأسى : « إنكم بهذه السياسات تتركونا وحدنا
على الساحة فريسة للاستعمار والامبريالية » !

والمفارقة أنى - مع كثرة ما سمعت في الاتحاد السوفيتى - لم أسمع من
السوفيت هذه المرة أياً من تعبيراتهم الشهيرة عن : « الاستعمار
والامبريالية » - وكان رد بعضهم حيناً ابديت ملاحظة عن هذا الغياب
« أن التناقضات تتغير شأنها شأن كل حال . وهناك في العالم حالة جديدة .
وهذه الحالة تحمل معها تناقضاتها . لكننا لانستطيع أن نسحب مسميات
حالة على ظواهر حالة أخرى - لاتزال تكشف عن طبائعها . »

• وكان بينهم من وقف بما هو أكثر حدة وظنه أن الاتحاد السوفيتى يتخلى عن
الماركسية ، وأن أجياله الحالية في حاجة إلى أن تتعلم اصولها وقوانينها من أول
حرف « الألف » !

وقال لى أحد « العقائديين العرب » : « إننى خارج من هنا إلى غير عودة ،
وإذا كنا نجىء إلى هنا لئرى مجتمعا يمسخ نفسه على الطريقة الأمريكية - من
« بنطلونات الجينز » إلى « موسيقى الروك » - فالأفضل أن نذهب إلى نيويورك
حيث « الأصل » وليس « المسخ » ! » .

وكانت تلك كلها تجارب مثيرة من الناحية الإنسانية - ولكننا من الناحية
السياسية كانت مدعاة لأسى شديد ، وفى ظنى أنه ليس أدعى إلى الأسى من

« يوم » لا يعرف أن هناك « غدا » وراءه ، وأن هناك وراء « الغد » « بعد غد » - وهكذا إلى آخر الزمان .

ولعل بعض « العقائديين العرب » معذرون في جزء من صدمتهم - فعلى امتداد حقب متوالية كان الاتحاد السوفيتي يبدو ظهيرا ونصيرا ثابتا لا يغير موقعه أو موقفه . ولم يتبه هؤلاء عندما بدأ ذلك الموقف السوفيتي يتأرجح - وكان طبيعيا أن يتأرجح - مبكرا عند بداية الوفاق . ولعلمهم لم يكونوا قادرين - أو راغبين - في التنبه للحقائق المستجدة - فلما اضطرت الاتحاد السوفيتي اضطرارا إلى تنبيههم لها - كانت الصدمة مضاعفة .

وكان بعض مشاهد المصارحة أشبه ما يكون بما يصوره كتاب المسرح الضاحك أو الباكى على حد سواء !

• روى لي أحد زعماء الحزب الشيوعي اللبناني أنه ناقش أزمة لبنان مع بعض مسئولى اللجنة المركزية في موسكو، وإذا هم يقولون له :

- « عليكم أن تحاولوا الوصول إلى تسوية بشكل ما » !

وقال لهم أن الطرف الآخر متعنت ويريد أن يفرض شروطه ، فكيف نستطيع أن نصل إلى تسوية معه ؟

وكان الرد : « لانعرف .. ولكن عليكم أن تصلوا إلى تسوية مهما كان الثمن . أى ثمن ! » .

• وسمعت قائدا فلسطينيا بارزا بين « المتصلبين » يروى تجربة مماثلة مع بعض مسئولى اللجنة المركزية - فقد قالوا له : « لا بديل غير التسوية السلمية ومائدة المفاوضات » !

وقلت له متعاطفا : « ولكننا سمعنا هذا الكلام منهم قبل الآن ، والجديد في هذه اللحظة أنهم يعلنونه صراحة . » .

ورد قائلا : « أنتم سمعتموه من قبل موجها إلى حكومات لديها خيارات للحركة وبدائل .. وأما نحن ... » .
قالها وسكت .

وقلت له بصدق : « لكن الشعب الفلسطيني لديه الانتفاضة ، وقد احدثت - وما زالت تحدث - آثارا تقدم خيارات وبدائل للحركة لم تتح من قبل لأى من الحكومات العربية المهمة بقضية فلسطين . »

• وكان المشهد المثير لمشاعر متناقضة هو مشهد « مناضل عقائدى » آخر جاء مفزوعا يقول لى :
- « تصور هؤلاء الناس .. قالوا لنا أمس أنهم يبحثون جديا فى التعاون مع الأمريكان فى مسألة مكافحة الإرهاب » ! .

• ثم لحقه مشهد مثير ثان حدث لواحد من صفوفة المثقفين العرب وقد جلس مع زملاء له من السوفيت يبحثون فى أمر مؤتمر موسع جديد يبحث فى مستقبل العلاقات العربية السوفيتية ، وإذا بزملائه السوفيت يقولون له باستحياء :

- « عندما تقومون بتحديد الوفود العربية القادمة إلى هذا المؤتمر فإننا نرجوكم - من فضلكم - تقليل عدد الشيوعيين فيها لأن البعض منهم تحجروا ! »

• وبالقرب من هؤلاء « العقائديين والمناضلين » العرب كان هناك مشهد ختامى أكثر إثارة ، فقد كانوا وهم مدعوون إلى مؤتمر عن العالم الثالث و « البيروسترويكا » يقيمون ضيوفا على اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى الفندق الفخم - بناء فقط ! - المخصص لأعضائها ، وهو فندق « أوكتوبرسكى » - نسبة إلى شهر أكتوبر ، شهر الثورة - لكن ضيف الشرف فى الفندق والذى احتل الجناح الرئاسى فيه كان نجم السينما

الأمريكية المشهور «شون كوناري» وكان في موسكو مع فريق كبير من المخرجين والمنتجين والفنيين يصورون فيلما مأخوذاً عن قصة «لوكاريه» الجديدة «خارج روسيا» "Out of Russia" !

كانت الصور كلها صدمات متتابعة !

[ولقد سمحت لنفسى أن ألفت نظر كثيرين إلى فارق بين سنتين هو نفسه الفارق بين سياستين للاتحاد السوفيتي :

• في سنة ١٩٦٩ أعلن الاتحاد السوفيتي التزامه بما سماه مبدأ «بريخنيف» وبمقتضاه فإن موسكو تعطي نفسها الحق في التدخل - حتى عسكرياً - ضد أى وضع تعتبره عدواناً من الخارج أو من الداخل على نظم حكم شيوعية . وكان ذلك في الواقع تقنياً للتدخل العسكري السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ - ضد «الأوضاع» التحررية التي نشأت عن ربيع «براغ» واجراءات التحرر التي قادها الزعيم التشيكوسلوفاكي «دوبتشيك» .

• وفي سنة ١٩٨٩ - خطط الاتحاد السوفيتي وشارك عملياً في تنفيذ انقلابات من الداخل على نظم حكم شيوعية ليستبدلها بـ «أوضاع» ليست بعيدة عما ذهب إليه «دوبتشيك» .

وكان «جورباتشوف» بنفسه هو الذى ضغط على الجنرال «ياروجيلوسكى» لكى يترك «حركة تضامن» تؤلف في بولندا وزارة غير شيوعية (بل معارضة للشيوعية) .

وكان «جورباتشوف» شريكاً فاعلاً في الانقلاب من الداخل على حكومة «هونيكرو» في ألمانيا الشرقية ، وعلى «جيفكوف» في بلغاريا . ومازال «جورباتشوف» يهندس لانقلابات أخرى من الداخل ضد نظم حكم شيوعية فقدت - في رأيه - إحساسها بدورة الزمان !

عشرون سنة تغيرت فيها الضرورات من النقيض إلى النقيض !

وكان ذلك كله صعبا ، ولكن بوصلة الواقع من حقها أن تضبط كل الاتجاهات !] .

* * *

ولعل لا أتجاوز إذا قلت إنني كنت أتوقع هذه النتيجة للعلاقات بين العالم الثالث والاتحاد السوفيتي منذ سنوات طويلة ، وقد ركزت عليها في الفصل الأخير من كتابي « أبو الهول والقوميسير » (وهو كتاب عن العلاقات العربية السوفيتية نشرته صحيفة الـ « صنداى تيمس » مسلسلا سنة ١٩٧٦ ، وطبعته دار « كولينز » للنشر بعد ذلك بشهور وترجم ونشر بأكثر من عشرين لغة) .
والحقيقة أن العلاقات العربية السوفيتية كانت تحمل منذ أيامها الأولى بذور المتاعب التي واجهتها فيما بعد :

١ - كان العرب « جاهزين » بالتحفظات على روسيا من قبل أن تبدأ علاقاتهم المباشرة مع السوفيت على نطاق واسع سنة ١٩٥٥ بصفقة السلاح الأولى مع مصر .

ذلك أنه طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بدت « روسيا القيصرية » وكأنها « العدو الرئيسي » لدولة الخلافة العثمانية تترصد بها دائما وتنقض عليها حين تسنح فرصة وتضم قطعة من أملاكها ، ثم تنتظر ريثما تبلعها وتهضمها ، ثم تعاود التحرش في طلب قضمة أخرى .

٢ - وحين جاءت الثورة البلشفية فإن التحفز ضدها بحكم سيطرة الغرب ومعه طبقة كبار ملاك الأرض - نجح في اقامة الحواجز والعتاس ضد الفكر الماركسي وحاول حصاره ومطاردته وتجريمه . وبالطبع كانت قضية الموقف من الوطنية والدين هي السبب والدريعة .

٣ - ومن المصادفات السيئة للفكر الماركسي وتنظيماته أنها بدأت تنشط في الأربعينيات - مع ظهور دور الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية -

لكن ذلك بالضبط كان وقت « ظهور » و « تقدم » الحركة الصهيونية إلى اغتصاب فلسطين . وكان العنصر اليهودي غالبا في التنظيمات الماركسية التي نشطت في ذلك الوقت . ووقع - وكان محتما أن يقع - خلط بين الماركسية والصهيونية - مع العلم أن صفوفه من الماركسيين العرب تنهت بوعى إلى مايقع ، ومن ثم تقدمت بشجاعة إلى قطع الظنون وخاضت في سبيل ذلك معركة على جبهتين : مع رفاقها القدامى ، ومع أجهزة الأمن في بلادها .

٤ - وعندما بدأت العلاقات بين العرب والسوفيت رسميا ، فقد بان أنها علاقات اضطرار أكثر منها علاقات اختيار . فالعرب الذين مدوا أيديهم للتعاون مع الاتحاد السوفيتي لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن بقيت أيديهم الممتدة للغرب معلقة في الهواء شهورا وسنين !

٥ - إن العرب - مع ذلك - ذهبوا إلى موسكو وغيورهم على واشنطن ، وقد قال لي « أندريه جروميكو » - وزير خارجية الاتحاد السوفيتي لأربعين سنة ورئيس الدولة السوفيتية مباشرة قبل « جورباتشوف » - مرة بضيق ظاهر : « لا أعرف لماذا يتذكر الزعماء العرب مواعيد الصلاة فقط عندما يجيئون إلى الكرملين . أثناء وجودهم في الكرملين وحين يجيء موعد الصلاة يقطعون الاجتماعات ويقفون لأدائها . لم اسمع أن واحدا منهم سأل عن اتجاه « القبلة » في البيت الأبيض ! »

٦ - إن الحكومات العربية وبيروقراطياتها التي جاءت لتتعامل - بالمفاوضات والمعاهدات والانفاقيات العسكرية والاقتصادية والثقافية وغيرها - مع نظيراتها في الاتحاد السوفيتي ، جاءت في البداية متبينة بظن أنها مقبلة على مستوى آخر من الناس . وكانت مفاجئتهم كبيرة حينما اكتشفوا أن البيروقراطية الروسية ليست أحسن حالا منهم . ولقد أدهشهم تركيز السلطة عند القمة ، وأدهشهم ضآلة المرتبات . وأدهشهم تعقيدات الاجراءات

(كانت مدرسة العرب في الإدارة عثمانية ، وكانت مدرسة الروس بيزنطية ، ولم يكن هناك فضل لواحدة منها على الأخرى) - ووقع في وهم البيروقراطيات العربية أنها أكفأ من البيروقراطيات السوفيتية . وأرسيت قواعد التعاون العربي - السوفيتي من منطق يستهين فيه كل طرف بصاحبه . ومع التسليم بوجود استثناءات لكل قاعدة فإن أطر التعامل كلها لم تكن متماسكة .

٧ - إن الخلفية الثقافية للعرب كانت متأثرة بأوروبا الغربية ، بعيدة عن أوروبا الشرقية . وبالتالي فإن الحوار بكل ما يستطيع أن يحققه من فهم مشترك كان قابلا للاتصال مع الغرب وأما مع الشرق فقد كان متعذرا .

٨ - إن ضرورات الفهم المشترك ، مع الحاجة لعلاقات مشتركة ، جعلت التفاهم يجرى ليس بطريقة تبادل الأفكار ، وإنما بطريقة تبادل الشعارات .

والشعارات في أدبيات البشر جميعا نوعان :

نوع يجترل حقيقة تاريخية ويستدعي كل أسبابها - من نوع القول بأن « العرب أمة واحدة » .

ونوع آخر أقرب إلى الهتافات منه إلى الشعارات ، وهو إحساس لحظة واحدة ليس لها العمق التاريخي الضارب في بطن الأرض - ومن نوع أن نقول « عاشت الصداقة العربية السوفيتية » .

وفي غيبة أصول تاريخية . حضارية ثقافية . فإن الشعارات التي جرى تبادلها في اطار العلاقات العربية السوفيتية كانت من النوع الثاني .. الأقرب إلى الهتافات .

وهذا النوع لا يعيش طويلا .. بالضبط لغياب جذور تاريخية له مهما كانت دواعي المصلحة الآنية فيه !

٩ - ثم أن العرب - وهم يعرفون أن علاقاتهم الطارئة مع السوفيت هي معبر إلى طريق آخر واصل إلى الغرب - لم يبذلوا جهدا كافيا لفهم صديقهم الاضطرارى بما فى ذلك تكوينه الجغرافى والتاريخى والثقافى . وكذلك مصالحه الدائمة داخل حدود بلاده أو خارجها . وبالتالى فأنهم أخذوه « مضمونا » بحكم الاحتياجات . وكانت الاحتياجات فى تلك الفترة هي منافسة الحرب الباردة مع الغرب ، ومبيعات السلاح السوفيتى للعرب . وعندما بدأت ثلوج الحرب الباردة تذوب تحولت ساحة العلاقات إلى مستنقعات من الوحل غرقت فيها المدافع والدبابات ومدارج المطارات - ومعها الحاجة إلى فهم أعمق !

١٠ - ومن باب انصاف النفس ، فن الحق أن يقال إن الاتحاد السوفيتى تصرف فى بعض الأحيان بيد غليظة . لكنها يد الفلاح « السلافى » بالطبيعة ، أو يد عامل الصلب الذى لا يعرف غير التعامل مع كتل المعادن سائلة بالصهر أو متجمدة باردة !

ومع ذلك فقد كانت السياسة السوفيتية تملك قدرا كبيرا من سلامة التفكير وسلامة التقدير جعلها تدرك بعد سقوط معاهدتها مع مصر سنة ١٩٧٥ - أنه لم يعد أمامها مفر سوى الخروج من قلب الشرق الأوسط والانسحاب إلى أطرافه . ومن سوء الحظ أن الاتحاد السوفيتى وهو يحاول ترسيخ موقعه فى الأطراف القريبة من حدوده وجد نفسه متورطا فى أفغانستان . فقد خشى أن يدهم تيار الأصولية الاسلامية داخل جمهورياته الجنوبية . ولم ينجح هذا التدخل . وأدت ظروفه فى الجنوب إلى احتكاك بدأ شرره يصل إلى « كازاخستان » و « اذربيجان » وغيرهما . ومرة أخرى كان عليه أن ينسحب !

* * *

والنتيجة أن الاتحاد السوفيتى ، بعد ثلاثين سنة من التعامل مع العالم الثالث ، وجد الحصيلة خسارة محققة :

وتشير الأرقام - حتى الأرقام الأمريكية - إلى أن الاتحاد السوفيتي في فترة الثلاثين سنة هذه تكلف صافيا قرابة أربعين بليون دولار في مساعدات للعالم الثالث . وفوق ذلك فإنه أرسل إلى هذا العالم الثالث أكثر من سبعين ألف خبير عسكري ومدني لا يستطيع أحد أن ينكر واقع اسهامهم في قضايا العالم الثالث ، وبعضهم إلى حد الموت !

ولقد كان ذلك أكثر مما يستطيع الاتحاد السوفيتي أن يتحملة ، وهو مازال يتحمل حتى الآن :

بليون دولار كل سنة حتى الآن لكوبا .

وبليون دولار كل سنة حتى الآن لفيتنام الشمالية .

وبليون دولار كل سنة حتى الآن لأفغانستان .

وبليون دولار كل سنة حتى الآن موزعة ما بين أنجولا وأثيوبيا في أفريقيا .

وهذا بالطبع غير ما يتكلفه الاتحاد السوفيتي في الداخل من تكاليف ضيافات واستقبال وفود ، وتلبية رغبات بعضها معقول وأكثرها مبالغ فيه .

وكان الاتحاد السوفيتي خصوصا طوال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات والثمانينيات أيضا - يفتح أبوابه كلها « لوفود صديقة أو شقيقة » - وكان ذلك في تقديره جزءا من هبة الدولة الأعظم ، ثم أنها التجربة الأولى لدولة « التنظيم الاجتماعي » . وجرى اعداد قصور في الضواحي ، وبناء فنادق في العواصم ، واعداد مستشفيات ومصحات في شواطئ البحر الأسود تفتح احضانها للاستقبال « الرفاق » .

وربما أن بعض ذلك جرت تهيئته في الأصل لقادة الدولة والحزب يتأكدون فيه بحياة كل يوم أنهم واحدة من القوتين الأعظم - وعندما فتحت أبوابه « للرفاق » من الخارج فقد كان الهدف منه أن يعرف هؤلاء - بدورهم - أن الاتحاد السوفيتي لا يقل في مجالات الأبهة عما هو معروف في أوروبا الغربية وأمريكا . وكان ذلك كله مكلفا . ولكنه بدون مردود حقيقي .

وفي إحدى ليالى موسكو المزدحمة بالحوارات السياسية الممتدة حتى مطلع
الفجر ، قال لى مشول سوفيتى بارز :

- « هل تعرف ماذا استوقفنى فى كتابك « أبو الهول والقوميسير » ؟ استوقفنى
تعبيرك أن العالم الثالث كله يختار أن يقلع بالطائرة مع الاتحاد السوفيتى ، وعندما
يحين وقت الهبوط فإنه يختار أن ينزل مع الأمريكان .

ولقد تمثلت الصورة فى ذهنى فى عدة مناسبات ، وسألت نفسى وآخرين من
أصدقائى :

- كيف قام أصحابنا بهذه الحركة الخطيرة فى الجو .. الانتقال من الطائرة
السوفيتية التى اقلعوا بها إلى الطائرة الأمريكية التى هبطوا فيها؟! » .

* * *

وقبل أن أغادر موسكو جاء لوداعى مشول سوفيتى كبير- وقلت له :
« إننى عائد الآن إلى العالم الخارجى ، وأريد أن أسالك : ماذا أقول لهم إذا
سئلت عما رأيت فى الاتحاد السوفيتى؟! » .

وقال على الفور :

« قل لهم أن الاتحاد السوفيتى عائد إلى المجرى العام للتاريخ؟ » .

وخاولت استثارته ، فقلت :

« هل أفهم من ذلك أنكم كنتم حتى الآن خارج المجرى العام للتاريخ . وكنا
نسمع منكم أنكم حركة التاريخ ذاتها صافية ومقطرة؟ » .

وسكت قليلا ، ثم قال :

« ما أقصده هو أننا فى بعض الظروف عزلنا أنفسنا عن السياسة والاقتصاد فى
العالم . حاولنا إقامة نظام عالمى مستقل . والآن تفرض علينا الحقائق أن نشارك
مع بقية الدنيا . »

ومضيت أسأل :

« بما في ذلك الانضمام إلى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وغيرهما من المؤسسات ؟ وإذا ذهبتم إلى هذا الموقع ودخلتم في مشاركة من نوع جديد في تقسيم العمل الدولي ، فبا هي ضمانتنا ضد ألا نجدكم فجأة ضمن نظام السيطرة المالية العالمية الجديدة المتمركز في الغرب ؟ » .

ثم سألته :

« هل أنكم بذلك تصححون الخطأ الذي وقع فيه « لينين » على حد تعبير مشهور ومؤثر للمفكر الروسي « كويليف » قال فيه :

إن « لينين » تقيض لـ « كريستوفر كولومبس » . فقد بدأ « كولومبس » رحلته الملاحية متصوراً أنه ذاهب إلى الشرق ، وإذا به ينتهي إلى الغرب الجديد في أمريكا . وأما « لينين » فقد بدأ رحلته السياسية متصوراً أنه ذاهب إلى حضارة الغرب الجديدة ، فإذا رحلته تنتهي في الشرق ؟! »

ورد بقوله :

« إنكم الآن تعرفوننا على الأقل . هذا ما استفدناه من تجربة مشتركة طويلة ومعقدة . وعلى أي حال فلا بد أن تعرفوا أن وجودنا داخل النظم المالية العالمية قادر على أن يخفف - ولو قليلاً - من شرستها ! » .

ومع استعدادي لتقبل فكرة أن جزءاً من ذلك صحيح - فإن دواعي التخوف مازالت تفرض نفسها .

فالحصصة المعروضة على الاتحاد السوفيتي في صندوق النقد الدولي حتى الآن تكاد تكون ربع الحصصة التي تملكها الولايات المتحدة .

ثم أن الأوضاع الطارئة في الكتلة الشرقية كلها سوف تؤدي إلى تحول محقق في كل المساعدات الدولية المتاحة للدول النامية . وأغلب الظن - وهذا باد الآن وظاهر - أن حصصة الأسد في المساعدات الدولية تعيد الآن توجيه نفسها إلى ناحية

بولندا والمجر وألمانيا الشرقية وبلغاريا .

ونفس الوضع ينطبق على الاستثمارات الدولية مع تسليمى بأن ما هو متاح منها للعالم العربى ضئيل لا يكاد يذكر ، بل إنها حتى هذه اللحظة « طعم صيد » أكثر مما هي مكسب حقيقى . فنتيجة لأزمة الديون تحول العالم الثالث كله من استيراد الأموال إلى تصديرها للمتقدمين والأغنياء بفائض لصالح الغرب وصل فى العام الماضى إلى أكثر من ٢٥ بليون دولار !

وبرغم هذا الوضع المعكوس فإن الاستثمارات الدولية لاتزال مطلوبة خصوصا إذا أمكن تعديل شروطها وإذا كانت مصحوبة بتكنولوجيا جديدة تدخل فى صحتها !

ويضاف إلى ذلك أن تداعى الأحوال فى أوروبا الشرقية فى اتجاه الغرب قد يؤثر على فرص العمل المتاحة لملايين من العالم الثالث تسربوا إلى أوروبا الغربية حيث وجدوا هناك فرصا لمستقبل أحسن .

(ولم أقل لأحد فى الاتحاد السوفيتى « أنهم » فى الغرب كانوا يساعدون ويستثمرون - ! - وبين دوافعهم ألا تقرب منهم بأكثر مما هو لازم - والآن فإن نصف الكتلة الشرقية - وأنتم وراءها - الذين تقربون منهم بأكثر مما هو لازم !!) .

* * *

ومهما كان أو يكون فالمنهم فى تقديرى الآن هو التركيز على المستقبل

ولعلنا فى النظر إليه لانسى حقائق كانت ولاتزال قائمة :

١ - إن الاتحاد السوفيتى مازال واحدا من القوتين الأعظم فى هذا العصورى هذا العالم - وسوف يظل كذلك إلى وقت طويل .

٢ - إن الاتحاد السوفيتى مازال قوة اقتصادية ضخمة ، ولقد ضربها الزلزال بعنف وأفقدتها توازنها هذه اللحظة - لكن كل لحظة فى التاريخ عابرة خصوصا

إذا كان أصحابها يملكون وعى إدارة شئونهم فيها ويملكون موارد ومصادر التصحيح الضرورية واللازمة .

٣- إن الاتحاد السوفيتي مازال صديقا للعالم الثالث - ويجب أن يظل له هذا الموقع ضرورة وعدلا .

٤- إن الاتحاد السوفيتي - مها قلنا أو قال غيرنا - مهتم بالشرق الأوسط لأنه جاره المباشر بالجغرافيا - وهذا وضع لا يمكن اعتراضه أو قطعه .

.....
.....

على أن العلاقات بين الطرفين - العالم الثالث والشرق الأوسط - قد تحتاج أكثر ما تحتاج الآن إلى إعادة تقييم وإلى إعادة فهم وإلى إعادة رسم نوع مختلف من العلاقات في عالم بالغ التعقيد .

ولقد علمت في موسكو أنهم ينتظرون زيارة مقبلة من الرئيس « حسنى مبارك » في شهر مارس أو إبريل القادمين . وأظنها فرصة مواتية له يتمكن فيها من إعادة صياغة علاقات عربية سوفيتية تصلح لعصر جديد وتواجه مستقبلا لا بد من التدخل في تشكيله قدر ما نستطيع سرعة واتجاها !

والحصول النهائية أن علاقاتنا بالاتحاد السوفيتي - بعد الزلزال وبعد الطوفان - لا يجب أن تترك للمصادفات .

أو للقاء في البحر الأبيض المتوسط - بين « بوش » و « جورباتشوف » - ليس لديه وقت لها ولاهى مطروحة على جدول أعماله الحقيقي !

رقم الإيداع : ١٩٨٩/٩٢٤٥
التقييم المولي : ٩ - ٣٩١ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

التمامة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بكرويت، ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣